سلسلة إصدارات مركز المحتسب للاستشارات ( )

وقفات مع آيات الحسبة في القرآن الكريم

(تفسير وبيان تأملات ومعاني دروس وعبر)

تأليف:

أبي عبد الرحمن صادق بن محمد الهادي

وقفات مع آيات الحسبة
في القرآن الكريم

حقوق الطبع محفوظة

ح
دار المحتسب للاستشارات١٤٣٣هـ
فهرسة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الهادي، صادق محمد
آيات الحسبة في القرآن الكريم (تفسير وبيان- تأملات ومعاني- دروس وعبر)./ صادق محمد الهادي- الرياض، ١٤٣٣هـ
٧٢ص ؛ ١٤×٢٠
ردمك: ٩-٤-٩٠٢٨٩-٦٠٣-٩٧٨
١- الحسبة ٢- القرآن ٣- تفسير أ. العنوان
ديوي ٢٫٢٥٧ ١٤٣٣ / ٩٣٠٧

رقم الإيداع: ٩٣٠٧/ ١٤٣٣
ردمك: ٩-٤-٩٠٢٨٩-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول؛ وهو كتاب الحياة وروحها، وهو قوامها وكيانها، وهو حارسها وراعيها، وهو دستورها ومنهجها، وهو المرجع الذي نستمد منه الإيمان والأخلاق والفضائل، وهو منهاج الحركة، وزاد الطريق، وهو دستور هذه الأمة في أي جيل، ومن أي قبيل، وهو حادي الطريق، وهادي السبيل على توالي القرون.

ولهذا تعين وتوجب الاهتمام به، والعمل بما جاء به، وقد أدركت الأمة ذلك؛ فانصبت إليه جهودها بصورة لم يُسبق إليها؛ لأنه كلام الله المحفوظ، الذي لا يشبهه كلام، ولا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وقد تكفل الله بحفظه، فلا يتطرق إليه نقص ولا زيادة، ولا تشبع العلماء من تدبره، والتفقه في معانيه، ولا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثل سورة منه؛ لأنه المعجزة الخالدة، والحجة الباقية، وقد أمر الله بتلاوته وتدبره، وجعله مباركاً، كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [٢٩ سورة ص].

وما من جانب من جوانب الشرع إلا تناوله القرآن بشيء من التفصيل والبيان، مما يشفي العليل، ويروي الغليل، فهو بهذا نبع لا يخبو، وبحر لا ينضب.

ولقد اعتنى القرآن بالحسبة - وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -، وجعلها قضية أساسية في الدين، ومن أجل القيام بهذا الواجب

على الوجه المشروع جاءت الآيات تلو الآيات تبيّن حكمه، وترسم معالمه وحدوده، وتزجر عن الانحراف به وعنه ذات اليمين، وذات الشمال، وهذه الآيات في دلالتها جاءت لتقرّر منهج الوسطية، وتصون هذه الشعيرة عن الانحراف والتبديل والتضييع والإهمال.

والمتتبع للفظ (المعروف) و(المنكر) في القرآن الكريم يجد أن لفظ (المعروف) قد ذُكر في القرآن إحدى وعشرين مرة، ولفظ (معروف) سبع عشرة مرة، و(المنكر) أربع عشرة مرة، و(منكر) مرتان.

والقرآن في تناوله لهذه الشعيرة قد تناولها بأساليب مختلفة، وصيغ متعددة، منها:

- أهمية وفضل هذه الشعيرة.
- الإخبار بأن هذه الشعيرة موجودة في الأمم السابقة.
- بيان خطورة ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تضييع هذا الركن، وعدم القيام به انحراف عن الصراط المستقيم؛ لأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر يُعد القطب الأعظم في الدين، ولو طوي بساطه في أي عصر لاضمحلت الديانة، وظهر الفساد، ولخربت البلاد، وفُتن العباد.
- الإخبار بأنها سبب النجاة، وسبب خيرية هذه الأمة.
- الإخبار بأنها من صفات المؤمنين التي يتواصون بها.
- الإخبار بأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر عمل الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم المؤمنين.

وقد بلغت النصوص من القرآن والسنة التي أوجبت الأمر

بالمعروف، والنهي عن المنكر مبلغ القطع، وبلغت الآيات التي جاءت في الحسبة في القرآن الكريم صريحةً ست عشرة آية.

وسنتكلم عن هذه الآيات آية آية، مستلهمين بعض الدروس والوقفات والمعاني منها، سائلين من الله العون والسداد.

****

❁ الآية الأولى:

التحذير من مضارة القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتشبيه حال من يضارهم بحال اليهود

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢١ سورة آل عمران].

لقد جاءت هذه الآية لبيان بعض أحوال اليهود المنافية لإسلام الوجه لله، فهم المقصودون بهذه الصفات؛ لأنهم قد عرفوا بمضمونها في مواضع كثيرة من القرآن.

ولا يمنع أن تُحمل على النصارى أيضاً، فقد قال ابن عطية: قال محمد بن جعفر بن الزبير وغيره: إن هذه الآية في اليهود والنصارى[١].

إلا أن ذكْر هذه الصفات من (الكفر بآيات الله، مصحوباً بقتل النبيين بغير حق، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس) يوحي بأن التهديد كان موجهاً لليهود، فهذه سمتهم في تاريخهم، يُعرفون بها متى ذُكرت!

يقول سيد قطب -رحمه الله-: «ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للنصارى كذلك، فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية، بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى، وبشرية المسيح -عليه السلام-، وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط.

---

(١) انظر: جامع لطائف التفسير (١٢/ ١١٨).

كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع، وكثير ما هم في كل زمان، ويحسن أن نتذكر دائماً ماذا يعني القرآن بوصف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [٢١ سورة آل عمران]، فليس المقصود فقط من يعلن كلمة الكفر، إنما يدخل في مدلول هذا الوصف من لا يقر بوحدة الإلوهية، وقصر العبودية عليها، وهذا يتضمن بصراحة وحدة الجهة التي تصرّف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين، فمن جعل لغير الله شيئاً من هذا ابتداء فهو مشرك به، أو كافر بإلوهيته، ولو قالها ألف مرة باللسان!»[(١)].

ويقول محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله: «والمراد من أصحاب هذه الصفات يهود العصر النبوي؛ لأنهم الذين توعدهم بعذاب أليم، وإنما حمل هؤلاء تبعة أسلافهم؛ لأنهم معتقدون سداد ما فعله أسلافهم الذين قتلوا زكريا... فكان هذا القتل معدوداً عليهم، وكم قتلوا ممن يأمرون بالقسط، وكل تلك الجرائم معدودة عليهم؛ لأنهم رضوا بها، وألحوا في وقوعها[(٢)].

ويقول القرطبي رحمه الله: «قال أبو العباس المبرد: كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوهم، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام فقتلوهم؛ ففيهم نزلت هذه الآية، وكذلك قال معقل بن أبي مسكين: كانت الأنبياءصلوات الله عليهم تجيء إلى بني إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قوم ممن اتبعهم

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٣٥٢).
(٢) التحرير والتنوير (ح٣ص٦١-٦٢).

فيأمرون بالقِسط أي بالعدل فيُقتَلون.

وروى شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم سبعين نبياً، ثم تقوم سُوقُ بَقْلِهم من آخر النهار![1]. وهذا دليل على عدم اكتراثهم بما يفعلون.

وقال ابن كثير في هذه الآية: «هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم، في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، التي بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم، وعناداً لهم، وتعاظماً على الحق، واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب، ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [٢١ سورة آل عمران] وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي ﷺ: (الكبر بطر الحق، وغمْط الناس)[2] [3].

والمتأمل في هذه الصفات الواردة في الآية، وهي: (يَكْفُرُونَ و(يَقْتُلُونَ) يجد أنها جاءت بالأفعال المضارعة؛ لتدل على استحضار الحالة الفظيعة، وليس المراد منها إفادة التجدد؛ لأن ذلك وإن تأتّى في قوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ لا يتأتى في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ لأنهم قتلوا الأنبياء والذين يأمرون بالقسط في زمن مضى وانتهى.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [٢١ سورة آل عمران]

(١) تفسير القرطبي (ح٤ ص٤٦).
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (ج١/ ص٦٥ -٢٧٥).
(٣) تفسير ابن كثير (ح٢ ص٢٧).

قال الطبري رحمه الله: «أي: يجحدون حجج الله وأعلامه، فيكذّبون بها»[١] وقيل: يجحدون بآيات الله يعني: القرآن.

وفي إبراز الاسم الأعظم في قوله: ﴿بآيات الله﴾ إشارة إلى عظيم كفرهم بكونه مما أضيف إليه سبحانه وتعالى[٢].

يقول الرازي: فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي كونهم كافرين بجميع آيات الله، واليهود والنصارى ما كانوا كذلك! لأنهم كانوا مقرين بالصانع وعلمه وقدرته والمعاد!

قلنا: الجواب من وجهين:

الأول: أن نصرف آيات الله إلى المعهود السابق، وهو القرآن، ومحمد ﷺ.

الثاني: أن نحمله على العموم، ونقول: إن من كذب بنبوة محمد ﷺ يلزمه أن يكذب بجميع آيات الله تعالى؛ لأن من تناقض لا يكون مؤمناً بشيء من الآيات؛ إذ لو كان مؤمناً بشيء منها لآمن بالجميع[٣].

وقال الرازي أيضاً: وإذا كان قوله: ﴿إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بآيات الله﴾ [٢١ سورة آل عمران] في حكم المستقبل؛ لأنه وعيد لمن كان في زمن الرسول ﷺ، ولم يقع منهم قتل الأنبياء، ولا القائمين بالقسط، فكيف يصح ذلك؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن هذه الطريقة لما كانت طريقة أسلافهم صحت هذه الإضافة إليهم، إذ كانوا مصوبين، وبطريقتهم راضين، فإن صنع الأب

(١) تفسير الطبري (ج٦/ ص٢٨٣).
(٢) جامع لطائف التفسير (١٢/ ١١٥) بتصرف.
(٣) مفاتيح الغيب (ح٧ ص١٨٦).

قد يضاف إلى الابن إذا كان راضياً به، وجارياً على طريقته.

الثاني: إن القوم كانوا يريدون قتل رسول الله ﷺ، وقتل المؤمنين إلا أنه تعالى عصمه منهم، فلما كانوا في غاية الرغبة في ذلك صح إطلاق هذا الاسم عليهم على سبيل المجاز، كما يقال: النار محرقة، والسم قاتل، أي ذلك من شأنهما إذا وجد القابل، فكذا ها هنا لا يصح أن يكون إلا كذلك[١]).

وفي قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النبيين﴾ [٢١ سورة آل عمران] ظاهره مشعر بأنهم قتلوا الكل، ومعلوم أنهم ما قتلوا الكل، ولا الأكثر ولا النصف!

والجواب: أن الألف واللام محمولان على المعهود، لا على الاستغراق[٢].

ولما كان قتلهم إياهم بدون شبهة أصلاً، بل لمحض الكفر والعناد؛ لأن الأنبياء مبرؤون من أن يكون لأحد قبلهم حق دنيوي أو أخروي، قال: ﴿بغير حق﴾ أي: لا صغير ولا كبير في نفس الأمر، ولا في اعتقادهم، فهو أبلغ مما في البقرة على عادة أفعال الحكماء في الابتداء بالأخف فالأخف.

قال ابن عادل: قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [٢١ سورة آل عمران] قرأ الحسن هذه والتي بعدها بالتشديد، أي: (يقتّلون) ومعناه: التكثير.

وجاء هنا: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ منكَّراً، وفي البقرة: ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ معرَّفاً، فقيل: لأن الجملة هنا أخرجت مخرج الشرط، وهو عام لا يتخصص؛

(١) مفاتيح الغيب (ح٧ ص١٨٦).
(٢) انظر: مفاتيح الغيب (ح٧ص١٨٦-١٨٧).

فلذلك ناسبَ أن تذكر في سياق النفي لتعمَّ، وأما في البقرة فجاءت الآية في ناسٍ معهودين مختصين بأعيانهم، وكان الحق الذي يُقْتَل به الإنسان معروفاً عندهم، فلم يقصد هذا العموم الذي هنا، فجِيء في كل مكان بما يناسبه(١).

ولهذا قال الرازي: «وإذا قيل: ما الفائدة في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ حَقّ﴾ وقتل الأنبياء لا يكون إلا كذلك؟

والجواب: ذكرنا وجوه ذلك في سورة البقرة، والمراد منه شرح عظم ذنبهم، وأيضاً يجوز أن يكون المراد أنهم قصدوا بطريقة الظلم في قتلهم طريقة العدل(٢).

وقال ابن عاشور رحمه الله: وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ظرف مستقر في موضع الحال المؤكدة لمضمون جملة: ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ إذ لا يكون قتل النبيين إلا بغير حق، وليس له مفهوم؛ لظهور عدم إرادة التقييد والاحتراز؛ فإنه لا يقتل نبي بحق، فذكر القيد في مثله لا إشكال عليه، وإنما يجيء الإشكال في القيد الواقع في حيز النفي، إذا لم يكن المقصود تسلط النفي عليه، مثل قوله تعالى: ﴿لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقوله: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ [٤١ سورة البقرة] وقد تقدم في سورة البقرة، والمقصود من هذه الحال زيادة تشويه فعلهم(٣).

وقال البقاعي رحمه الله: ولما خص ذكر أكمل الخلق وهم الأنبياء

(١) تفسير ابن عادل (ح٥ ص١١٣).
(٢) نظم الدرر (ح٢ص٤٧-٤٨).
(٣) التحرير والتنوير (ح٣ ص٦٢).

عبر بما يعم أتباعهم، فقال معيداً للفعل زيادة في لومهم وتقريعهم: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [٢١ سورة آل عمران] أي: العدل.

ولما كان ذلك شاملاً لمن لا قدرة لهم على قتله من الملائكة قال: ﴿من الناس﴾ أي: كلهم، سواء كانوا أنبياء أو لا، ويجوز أن يكون المراد بهذا القيد (من الناس) زيادة توبيخهم بأنهم يقتلون جنسهم الذي من حقهم أن يألفوه، ويسعوا في بقائه، وهذا تحقيق لأن قتلهم لمجرد العدوان...[١].

وقال ابن عادل الحنبلي رحمه الله: وموقع ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ الإعرابي: إما بيان، وإما للتبعيض، وكلاهما معلوم أنهم من الناس، فهو جارٍ مجرى التأكيد[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بالقسط مِنَ الناس﴾ [٢١ سورة آل عمران] قال ابن عادل: قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ الذين﴾ قرأ حمزة ﴿وَيُقَاتِلُونَ﴾ من المقاتلة، والباقون: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ كالأول.

فأما قراءة حمزة فإنه غاير فيها بين الفعلين، وهي موافقة لقراءة عبد الله: ﴿وَقَاتَلُوا﴾ من المقاتلة، إلا أنه أتى بصيغة الماضي، وحمزة يحتمل أن يكون المضارع في قراءته لحكاية الحال، ومعناه المُضِيّ[٣].

وأما الباقون فقيل في قراءتهم: إنما كرر الفعل لاختلاف متعلَّقه، أو كُرِّرَ تأكيداً، وقيل: المراد بأحد القتلَيْن إزهاق الروح، وبالآخر الإهانة، وإماتة الذكر؛ فلذلك ذكر كل واحد على حدته، ولولا ذلك لكان

(١) نظم الدرر (ح٢ص٤٧ - ٤٨).
(٢) انظر: تفسير ابن عادل (ح٥ص١١٤- ١١٥).
(٣) أي مضى وانتهى.

التركيبُ: ويقتلون النَّبِيِّينَ والذين يأمرون، وبهذا التركيب قرأ أبَيّ[١].

وقال الآلوسي في سبب تكرار الفعل ﴿يَقْتُلُونَ﴾: «ولعل تكرير (الفعل) للإشعار بما بين القتلين من التفاوت، أو باختلافهما في الوقت[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢١ سورة آل عمران] قال الفخر: هذا محمول على الاستعارة، وهو أن إنذار هؤلاء بالعذاب قائم مقام بشرى المحسنين بالنعيم، والكلام في حقيقة البشارة تقدم في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات﴾ [البقرة: ٢٥] انتهى[٣].

وقال الماوردي في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾: أي: فأخبرهم، والأغلب في البشارة إطلاقها على الإخبار بالخير، وقد تستعمل في الإخبار بالشر، كما استعملت في هذا الموضع، وفي تسميتها بذلك وجهان:

أحدهما: لأنها تغير بَشْرَةَ الوجه بالسرور في الخير، وبالغم في الشر.

والثاني: لأنها خبر يستقبل به البشرة[٤].

وقال ابن عاشور: واستعمل بشرهم في معنى: أنذرهم تهكماً، وحقيقة التبشير: الإخبار بما يظهر سرور المخبر (بفتح الباء) وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته؛ إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب، وهو موجب لحزن المخبَرين، فهذا الاستعمال في الضد معدود عند علماء البيان من الاستعارة، ويسمونها تهكمية؛ لأن تشبيه الضد بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم أو التمليح، كما أطلق عمرو بن كلثوم

(١) اللباب في علوم الكتاب (ج٣/ ص٤٩٧).
(٢) روح المعاني (ح٣ ص١٠٩).
(٣) مفاتيح الغيب (ح٧ ص١٨٧).
(٤) النكت والعيون (ح١ ص٣٨٢).

اسم الأضياف على الأعداء، وأطلق القرى على قتل الأعداء في قوله:

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القرى أن تشتمونا

قـريناكم فعجـلنا قراكم قبيل الصبح مرداة طحونا

قال السكاكي: وذلك بواسطة انتزاع شبه التضاد، وإلحاقه بشبه التناسب[١] انتهى.

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١- في الآية دليل على مشروعية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإن أدى إلى قتل الآمر به، قال ابن العربي: «قال بعض علمائنا: هذه الآية دليل على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وإن أدى إلى قتل الآمر به، وقد بينا في كتاب (المُشْكِلَين) الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وآياته وأخباره وشروطه وفائدته... والآيات في ذلك كثيرة، والأخبار متظاهرة، وهي فائدة الرسالة، وخلافة النبوة، وهي ولاية الإلهية لمن اجتمعت فيه الشروط المتقدمة[٢].

٢- وفيها دليل أيضاً أن هذه الشعيرة من الشرائع القديمة، قال القرطبي -رحمه الله-: «دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كانا واجبين في الأمم المتقدمة، وهو فائدة الرسالة، وخلافة النبوة»[٣].

وقد ذكر الرازي رحمه الله أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،

(١) التحرير والتنوير (ح٣ ص٦٢- ٦٣).
(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ١٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٤٧).

والإيمان بالله كانت حاصلة في سائر الأمم[١].

وقال الشيخ ابن باز -رحمه الله-: «والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر موجود في الأمم السابقة، بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب»[٢].

ومما يدل أيضاً على أن هذه الفريضة اتفقت الشرائع على وجوبها قوله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣-١١٤ سورة آل عمران] وسيأتي الكلام على هاتين الآيتين.

ومما يدل على ذلك أيضاً قول لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [١٧ سورة لقمان].

٣- عظم منزلة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، وقد استنبط الحسن رحمه الله من هذه الآية: أن الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر تلي منزلته عند الله منزلة الأنبياء، قال -رحمه الله-: «إن في هذه الآية دليلاً على أن الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر تلي منزلته عند الله منزلة الأنبياء؛ فلهذا ذُكر عقيبهم»[٣].

وقال جمال الدين القاسمي -رحمه الله-: قال الله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢١ سورة آل عمران] قد دلت

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٣: ٢٧).
(٢) مجلة البحوث الإسلامية (٢٨/ ٨).
(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ١٣٠).

الآية على عظم حال من يأمر بالمعروف، وعظم ذنب قاتله؛ لأنه قرن ذلك بالكفر بالله، وقتل الأنبياء[١].

٤- أن على الآمر والناهي أن يعلم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره والشوك، فهؤلاء هم الأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس قد قتلوا، مع أنهم يدعون الناس إلى الحق والخير، ويدعونهم إلى فلاحهم وصلاحهم، ومع هذا قتلوهم! ولكن عاقبة هذه الفريضة التمكين في الدنيا، والرشاد والنصر على الفساق المفسدين، ولو طال الزمن؛ لأن الحق ممتحن، ومنصور أهله في الختام.

يقول محمد رشيد رضا -رحمه الله-: «وقد جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإن كان محفوفاً بالمكاره والمخاوف، فكم قتل في سبيل ذلك منهم من نبي وصِدِّيق، فكانوا أفضل الشهداء[٢].

٥- أن تغيير المنكر عند الخوف وخشية تلف النفس والمال له منزلة عظيمة عند الله تعالى، وهذه عبادة لا يطيقها إلا القليل من المؤمنين، ولا سيما في الأزمنة المتأخرة، وقد طغى الشر على الخير، والفساد على الصلاح، والبدعة على السنة[٣]، بدليل تعظيم قدر من قتل آمراً بالقسط.

٦- أن إيذاء المصلحين الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، أو الاعتداء عليهم، أو الطعن فيهم، أو تضخيم أخطائهم، وبث الإشاعات الكاذبة عنهم جرم عظيم، وذنب كبير، تصيب المرء مغبته ومعرّته ولو

(١) كتاب تفسير القاسمي (ج٤/ ص٤٣).
(٢) تفسير المنار (ج٤/ ٣٢).
(٣) تنوير البصائر للنهي عن المناكر (١/ ٧٨).

بعد حين، كما قال الله في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِّ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢١سورة آل عمران] وفي الحديث: (إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)[١] رواه البخاري.

٧- أن من المعاصي ما يحبط حسنات الدنيا والآخرة كالارتداد، وكالكفر بآيات الله، والعناد فيه، كما قال تعالى هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِّ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم قال بعدها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [٢١-٢٢سورة آل عمران][٢].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع (٥/ ٢٣٨٤- ٦١٣٧).
(٢) انظر: جامع لطائف التفسير (٥/ ٣٨٧).

❁ الآية الثانيـــة:

أمر الأمة بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان أن الفلاح منوط بهما

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١٠٤ سورة آل عمران].

أمر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عباده المؤمنين بتكميل الغير إثر أمرهم بتكميل النفس؛ ليكونوا هادين مهديين، على ضد أعدائهم، فإن ما قص الله تعالى من حالهم فيما سبق يدل على أنهم ضالون مضلون.

قال ابن عاشور: (وصيغة: ﴿وَلْتَكُنْ منكم﴾ صيغة وجوب؛ لأنها أصرح في الأمر من صيغة: (افعلوا) لأنها أصلها، فيكون الأمر لتشريع الوجوب ابتداءً إذا كان الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر غير معلوم بينهم قبل نزول هذه الآية، أما إذا كان ذلك حاصلاً بينهم من قبل، كما يدل عليه قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] فالأمر هنا لتأكيد ما كانوا يفعلونه ووجوبه؛ وللدلالة أيضاً على الدوام والثبات عليه، فيكون مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦][1].

وقرأ ابن الزبير: ﴿وَلْتَكُنَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ويَستَعينونَ اللهَّ على ما أصابهم﴾ قال أبو بكر

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٣٧).

الأنباري: وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلامٌ من كلامه غَلِط فيه بعض الناقلين، فألحقه بألفاظ القرآن؛ يدلّ على صحة ما أصِفُ الحديثُ الذي حدّثنيه أبي حدثنا (حسن) بن عرفة حدثنا وكيع عن أبي عاصم عن أبي عون عن صبيح قال: سمعت عثمان بن عفان يقرأ: ﴿ويأمرون بِالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عن المنكرِ ويستعينون الله على ما أصابهم﴾ فما يشك عاقل في أن عثمان لا يعتقد هذه الزيادة من القرآن؛ إذ لم يكتبها في مصحفه الذي هو إمام المسلمين، وإنما ذكرها واعظاً بها، ومؤكِّداً ما تقدمها من كلام رب العالمين -جل وعلا-[١].

والجمهور على إسكان لام الأمر في ﴿وَلْتَكُن﴾ وقرئ بكسرها ﴿وَلِتَكُنْ﴾ على الأصل، قال ابن عطية -رحمه الله-: «قرأ الحسن والزهري وأبو عبد الرحمن وعيسى بن عمر وأبو حيوة: (ولِتكن) بكسر اللام على الأصل؛ إذ أصلها الكسر، وكذلك قرؤوا لام الأمر في جميع القرآن[٢].

قال ابن عاشور: والمخاطب بضمير ﴿منكم﴾ إن كان هم أصحاب رسول الله كما هو في بعض الخطابات جاز أن تكون (من) بيانية، وقُدم البيان على المبين، ويكون مرجع الأمة نفس الصحابة، وهم أهل العصر الأول من المسلمين، فيكون المعنى: ولتكونوا أمة يدعون إلى الخير، فهذه الأمة أصحاب هذا الوصف قد أمروا بأن يكونوا من مجموعهم الأمة الموصوفة بأنهم يدعون إلى الخير، والمقصود تكوين هذا الوصف؛ لأن الواجب عليهم هو التخلق بهذا الخلق، فإذا تخلقوا به تكونت الأمة

(١) تفسير القرطبي (ح٤ ص١٦٥- ١٦٦).
(٢) المحرر الوجيز (ج١/ ص٤٧٨).

المطلوبة، وهي أفضل الأمم، وهي أهل المدينة الفاضلة المنشودة للحكماء من قبل، فجاءت الآية بهذا الأمر على هذا الأسلوب البليغ الموجز.

وهذا هو الأظهر، فيكون جميع أصحاب رسول اللهﷺ قد خوطبوا بأن يكونوا دعاة إلى الخير، ولا جرم فهم الذين تلقوا الشريعة من رسول اللهﷺ مباشرة، فهم أولى الناس بتبليغها، وأعلم بمشاهدها وأحوالها، ويشهد لهذا قولهﷺ في مواطن كثيرة: (ليبلغ الشاهد الغائب)[١] وإلى هذا المحمل مال الزجاج وغير واحد من المفسرين، كما قاله ابن عطية.

ويجوز أيضاً على اعتبار الضمير خطاباً لأصحاب محمدﷺ أن تكون (من) للتبعيض، والمراد من الأمة الجماعة والفريق، أي: وليكن بعضكم فريقاً يدعون إلى الخير، فيكون الوجوب على جماعة من الصحابة، فقد قال ابن عطية: قال الضحاك والطبري: أمر المؤمنين أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة، فهم خاصة أصحاب الرسول، وهم خاصة الرواة[٢].

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك أنه متوجه إلى أصحاب رسول اللهﷺ خاصة، وهم الرواة، والأكثرون على جعله عاماً، ويدخل فيه من ذُكر دخولاً أولياً[٣].

وعلى هذا القول أن المخاطب هم الصحابة يكون في هذا التعبير محسن وهو (التجريد) حيث جُردت من المخاطبين أمة أخرى للمبالغة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ إلى ﴿ربها ناظرة﴾ [القيامة ٢٢ – ٢٣] (ج ٦/ ص٢٧١٠ – ٧٠٠٩) ومسلم في القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال(ج٥/ ص١٠٧ – ٤٤٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (ج١/ ص٨٠٠).

(٣) تفسير الألوسي (ج٣/ ص١٥٩).

في هذا الحكم، كما يقال: لفلان من بنيه أنصار.

وعلى القول بأن المخاطبين في قوله: (منكم) هم الصحابة، فيدخل في الخطاب من جاء بعدهم، يقول صاحب التحرير والتنوير: «وأقول: على هذا يثبت حكم الوجوب على كل جيل بعدهم بطريق القياس؛ لئلا يتعطل الهَدْي»[١].

قال ابن عطية: قال أهل العلم: وفرض الله بهذه الآية الأمر، بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائم سقط عن الغير[٢].

وقال الفخر: في قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ قولان:

أحدهما: أن ﴿مِنْ﴾ ههنا ليست للتبعيض لدليلين:

الأول: أن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على كل الأمة في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر﴾ [آل عمران: ١١٠].

والثاني: هو أنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إما بيده أو بلسانه أو بقلبه، ويجب على كل أحد دفع الضرر عن النفس، إذا ثبت هذا فنقول: معنى هذه الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، وأما كلمة ﴿مِنْ﴾ فهي هنا للتبيين لا للتبعيض، كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠] ويقال أيضاً: لفلان من أولاده جند، وللأمير من غلمانه عسكر، يريد

(١) التحرير والتنوير (ح٣ ص١٧٨- ١٨٠).
(٢) المحرر الوجيز (ج١/ ص٤٧٨).

بذلك جميع أولاده وغلمانه، لا بعضهم، كذا ها هنا، ثم قالوا: إن ذلك وإن كان واجباً على الكل إلا أنه متى قام به قوم سقط التكليف عن الباقين، ونظيره قوله تعالى: ﴿انفروا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ [التوبة: ٤١] وقوله: ﴿إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] فالأمر عام، ثم إذا قامت به طائفة وقعت الكفاية وزال التكليف عن الباقين.

والقول الثاني: أن ﴿مِنْ﴾ ها هنا للتبعيض، والقائلون بهذا القول اختلفوا أيضاً على قولين:

أحدهما: أن فائدة كلمة ﴿مِنْ﴾ هي أن في القوم من لا يقدر على الدعوة، ولا على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مثل النساء والمرضى والعاجزين.

والثاني: أن هذا التكليف مختص بالعلماء، ويدل عليه وجهان:

الأول: أن هذه الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومعلوم أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير وبالمعروف وبالمنكر، فإن الجاهل ربما دعا إلى الباطل، وأمر بالمنكر، ونهى عن المعروف، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً، فثبت أن هذا التكليف متوجه على العلماء، ولا شك أنهم بعض الأمة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلّ فِرْقَةٍ مّنْهُمْ طَائِفَةٌ لّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين﴾ [التوبة: ١٢٢].

والثاني: أنا جمعنا على أن ذلك واجب على سبيل الكفاية، بمعنى أنه

متى قام به البعض سقط عن الباقين، وإذا كان كذلك كان المعنى ليقم بذلك بعضكم، فكان في الحقيقة هذا إيجاباً على البعض لا على الكل، والله أعلم.

وفيه قول رابع: وهو قول الضحاك: إن المراد من هذه الآية أصحاب رسول اللهﷺ؛ لأنهم كانوا يتعلمون من الرسول -عليه السلام-، ويعلمون الناس، والتأويل على هذا الوجه: كونوا أمة مجتمعين على حفظ سنن الرسولﷺ، وتعلم الدين[١].

ونقل القولين في (من) القرطبي حيث قال: "و(مِن) في قوله: (مِنكم) للتبعيض، ومعناه: أن الآمِرين يجب أن يكونوا علماء، وليس كل الناس علماء، وقيل: لبيان الجنس، والمعنى: لتكونوا كلكم كذلك"[٢].

وفي قوله في الآية: ﴿أمة﴾ الأمة تطلق على:

الجماعة والطائفة؛ كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وأصل الأمة من كلام العرب الطائفة من الناس التي تؤم قصداً واحداً من نسب أو موطن أو دين أو مجموع ذلك، ويتعين ما يجمعها بالإضافة أو الوصف، كقولهم: أمة العرب، وأمة غسان، وأمة النصارى، وتطلق على أتباع الأنبياء لاجتماعهم على مقصد واحد. وعلى القدوة؛ ومنه: ﴿إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠].

وعلى الدين والملة، ومنه: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [٢٢ سورة الزخرف].

---

(١) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٤٥- ١٤٦).
(٢) تفسير القرطبي (ج٤/ ص ١٦٥).

وعلى الزمان، ومنه: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [٤٥ سورة يوسف]... إلى غير ذلك من معانيها.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [١٠٤ سورة آل عمران] المراد من الدعاء إلى الخير الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، فالخير هنا اسم يجمع خصال الإسلام: كما في حديث حذيفة بن اليمان «قلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر»[(١)]... الحديث.

قال ابن عاشور: «وأريد بالخير ما يشمل جميع الخيرات، ومنها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيكون العطف من عطف الخاص على العام للاهتمام به»[(٢)]. وإظهاراً لشرفهما، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه؛ كما قيل في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة.

وقال ابن المنير: «إن هذا ليس من تلك الباب؛ لأنه ذكر بعد العام جميع ما يتناوله؛ إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور، أو ترك منهي، لا يعدو واحداً من هذين، حتى يكون تخصيصهما بتميزهما عن بقية المتناولات، فالأولى أن يقال: فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً، ثم مفصلاً.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (ج٣/ ص١٣١٩- ٣٤١١)، وفي كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (ج٦/ ص٢٥٩٥- ٦٦٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (ح٣ ص١٨١- ١٨٣).

وفي تثنية الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية إلا إن ثبت عرف يخص الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير، وحينئذٍ يتم ما ذُكر، وما أرى هذا العرف ثابتاً» انتهى[١].

وله وجه وجيه؛ لأن الدعاء إلى الخير لو فسر بما يشمل أمور الدنيا وإن لم يتعلق بها أمر أو نهي كان أعم من فرض الكفاية، ولا يخفى ما فيه... وهذا يدل أن الدعاء إلى الخير لا يشمل الدعاء إلى أمور الدنيا.

وقيل: إن الدعوة إلى الخير غير الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيكون عطف الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر عليه من عطف الشيء على مغايره، وهو أصل العطف.

فمن الناس من فسر الخير بمعروف خاص، وهو الإيمان بالله تعالى، وجعل المعروف في الآية ما عداه من الطاعات، فحينئذٍ لا يتأتى ما قاله ابن المنير أيضاً، ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل: أن الخير الإسلام، والمعروف طاعة الله، والمنكر معصيته[٢].

وهذا الواجب وهو الدعوة إلى الخير يتفاوت، يقول ابن عاشور: «إن الدعوة إلى الخير تتفاوت: فمنها ما هو بيّن يقوم به كل مسلم، ومنها ما يحتاج إلى علم فيقوم به أهله، وهذا هو المسمى بفرض الكفاية، يعني إذا قام به بعض الناس كفى عن قيام الباقين، وتتعين الطائفة التي تقوم بها بتوفر شروط القيام بمثل ذلك الفعل فيها، كالقوة على السلاح في الحرب، وكالسباحة في إنقاذ الغريق، والعلم بأمور الدين في الأمر

(١) تفسير الألوسي (ج٣/ ص١٥٩).
(٢) تفسير الألوسي (ج٣/ ص١٥٩).

بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكذلك تعين العدد الذي يكفي للقيام بذلك الفعل، مثل كون الجيش نصف عدد جيش العدو، ولما كان الأمر يستلزم متعلقاً، فالمأمور في فرض الكفاية الفريق الذين فيهم الشروط، ومجموع أهل البلد، أو القبيلة لتنفيذ ذلك، فإذا قام به العدد الكافي ممن فيهم الشروط سقط التكليف عن الباقين، وإذا لم يقوموا به كان الإثم على البلد، أو القبيلة، لسكوت جميعهم، ولتقاعس الصالحين للقيام بذلك، مع سكوتهم أيضاً، ثم إذا قام به البعض فإنما يثاب ذلك البعض خاصة[1].

وقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [١٠٤ سورة آل عمران] المعروف الوارد في الآية الذي يأمرون به: هو ما يعرف، وهو مجاز في المقبول المرضي به؛ لأن الشيء إذا كان معروفاً كان مألوفاً مقبولاً مرضياً به، وأريد به هنا ما يقبل عند أهل العقول وفي الشرائع، وهو الحق والصلاح؛ لأن ذلك مقبول عند انتفاء العوارض.

والمنكر: مجاز في المكروه، والكره لازم للإنكار؛ لأن المنكر في أصل اللسان هو الجهل، ومنه تسمية غير المألوف نكرة، وأريد به هنا الباطل والفساد؛ لأنها من المكروه في الجبلة عند انتفاء العوارض.

والتعريف في (الخير) و(المعروف)و(المنكرتعريف الاستغراق، فيفيد العموم في المعاملات بحسب ما ينتهي إليه العلم والمقدرة، فيشبه الاستغراق العرفي، فالمعروف شامل لكل ما أمر به الشرع وما تقبله العقول والفطر السليمة، والمنكر ضده، وقد تقدم بيانهما.

والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا بد له

(١) التحرير والتنوير (ح٣ ص١٨١- ١٨٣).

من جماعة تدعو إليه، وتقوم به، يقول سيد قطب -رحمه الله: "ولا بد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته، فهناك (دعوة) إلى الخير، ولكن هناك كذلك (أمر) بالمعروف، وهناك (نهي) عن المنكر، وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان فإن (الأمر والنهي) لا يقوم بهما إلا ذو سلطان.

هذا هو تصور الإسلام للمسألة، إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى، سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله، سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر، وتحقيق هذا المنهج يقتضي (دعوة) إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج، ويقتضي سلطة (تأمر) بالمعروف (وتنهى) عن المنكر فتطاع، والله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ [٦٤ سورة النساء] فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان، فهذا شطر، أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي، على تحقيق المعروف، ونفي المنكر من الحياة البشرية، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى، وكل ذي شهوة، وكل ذي مصلحة، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره، زاعماً أن هذا هو الخير والمعروف والصواب!

والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكرمن ثم

تكليف ليس بالهين، ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم، وفيهم الجبار الغاشم، وفيهم الحاكم المتسلط، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد، وفيهم المنحل الذي يكره الجد، وفيهم الظالم الذي يكره العدل، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة، وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف، ويعرفون المنكر، ولا تفلح الأمة، ولا تفلح البشرية إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفاً، والمنكر منكراً، وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى وتطاع.

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين: الإيمان بالله والأخوة في الله؛ لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى، ثم بقوة الحب والألفة، وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة»[1].

تنبيه: استدل بعضهم بهذه الآية على أن الفاسق ليس عليه أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر:

قال الفخر الرازي: «منهم من تمسك بهذه الآية في أن الفاسق ليس له أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، قال لأن هذه الآية تدل على أن الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر من المفلحين، والفاسق ليس من المفلحين، فوجب أن يكون الآمر بالمعروف ليس بفاسق!

وأجيب عنه بأن هذا ورد على سبيل الغالب، فإن الظاهر أن من أمر

(١) في ظلال القرآن (ج١/ ص٤١٣).

بالمعروف، ونهى عن المنكر لم يشرع فيه إلا بعد صلاح أحوال نفسه؛ لأن العاقل يقدم مهم نفسه على مهم الغير، ثم إنهم أكدوا هذا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٤] وبقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢، ٣] ولأنه لو جاز ذلك لجاز لمن يزني بامرأة أن يأمرها بالمعروف في أنها لم كشفت وجهها؟ ومعلوم أن ذلك في غاية القبح، والعلماء قالوا: الفاسق له أن يأمر بالمعروف؛ لأنه وجب عليه ترك ذلك المنكر، ووجب عليه النهي عن ذلك المنكر، فإذا ترك أحد الواجبين لا يلزمه ترك الواجب الآخر.

وعن بعض السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا، وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل، فقال: وأينا يفعل ما يقول؟ ودَّ الشيطان لو ظفر بهذه الكلمة منكم فلا يأمر أحد بمعروف، ولا ينهى عن المنكر[١].

وفي قوله: (يدعون) و(يأمرون) و(ينهون) حُذفت مفاعيل الأفعال الثلاثة لقصد التعميم، أي: يدعون كل أحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾ [يونس:٢٥]. قال الشوكاني: وحذف متعلق الأفعال الثلاثة: أي يدعون ويأمرون وينهون لقصد التعميم: أي كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك[٢].

وقوله تعالى: ﴿وأولئك هُمُ المفلحون﴾ [١٠٤ سورة آل عمران] ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الكاملة و(هم) ضمير

(١) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٤٦ - ١٤٧).
(٢) فتح القدير (١/ ٥٥٧).

فصل يفيد اختصاص المسند بالمسند إليه ﴿المفلحون﴾ أي: الظافرون ببغيتهم، وهذا وعد كريم من الله[١] فـ﴿المفلحون﴾ أي: الكاملون في الفلاح، وبهذا صح الحصر المستفاد من الفصل، وتعريف الطرفين.

قال ابن عاشور: "وجملة: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ معطوفة على صفات أمة، وهي التي تضمنتها جمل: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والتقدير: وهم مفلحون؛ لأن الفلاح لما كان مسبباً على تلك الصفات الثلاث جعل بمنزلة صفة لهم، ويجوز جعل جملة: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حالاً من أمة، والواو للحال، والمقصود بشارتهم بالفلاح الكامل إن فعلوا ذلك.

وكان مقتضى الظاهر فصل هذه الجملة عما قبلها بدون عطف، مثل فصل جملة: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] لكن هذه عطفت أو جاءت حالاً لأن مضمونها جزاء عن الجمل التي قبلها، فهي أجدر بأن تلحق بها، ومفاد هذه الجملة قصر صفة الفلاح عليهم، فهو إما قصر إضافي بالنسبة لمن لم يقم بذلك مع المقدرة عليه، وإما قصر أريد به المبالغة لعدم الاعتداد في هذا المقام بفلاح غيرهم، وهو معنى قصد الدلالة على معنى الكمال[٢].

ومما يدل على فلاح وخيرية من يتصف بهذه الصفات قول الحسن: من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر فهو خليفة الله تعالى، وخليفة رسوله ﷺ، وخليفة كتابه[٣].

(١) انظر: المحرر الوجيز (ح١ص٤٨٥ - ٤٨٦).
(٢) التحرير والتنوير (ح٣ ص١٨٣).
(٣) تفسير الألوسي روح المعاني (٢/ ٢٣٩).

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١- في هذه الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها، ويرتفع سنامها.

٢- وفيها: بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين؛ إذ لم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ فإذاً مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة[1] انتهى.

فإن قلت: فمن يباشره؟ فالجواب: كل مسلم تمكن منه، ولم يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة، أو إن نهيه لا يؤثر؛ لأنه عبث، إلا أنه يستحب لإظهار شعار الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين.

فإن قلت: فمن يُؤمر ويُنهى؟ قلت: كل مكلف وغير المكلف، إذا همّ بضرر غيره مُنع، كالصبيان والمجانين، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعودوها، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها، ذكره الزمخشري[2].

وأوجبت هذه الآية أن تقوم طائفة من المسلمين بهذه الأمور الثلاثة: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، يقول الغزال يرحمه الله: «هذه الآية اشتملت على التكليف بثلاثة أشياء:

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٧).

(٢) انظر: محاسن التأويل (تفسير القاسمي) سورة آل عمران تفسير آية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾(١٠٤).

أولها: الدعوة إلى الخير، ثم الأمر بالمعروف، ثم النهي عن المنكر؛ ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغايرة، فنقول: أما الدعوة إلى الخير فأفضلها الدعوة إلى إثبات ذات الله وصفاته، وتقديسه عن مشابهة الممكنات، وإنما قلنا: إن الدعوة إلى الخير تشتمل على ما ذكرنا؛ لقوله تعالى: ﴿ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالحكمة﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هذه سَبِيلِي ادعوا إلى الله على بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتبعني﴾ [يوسف: ١٠٨].

إذا عرفت هذا فنقول: الدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان:

أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي، وهو بالمعروف.

والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي، وهو النهي عن المنكر، فذكر الجنس أولاً، ثم أتبعه بنوعية مبالغة في البيان[١].

وقد ذكر العلماء للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر شروطاً مبينة في الفقه والآداب الشرعية، إلا أني أنبه إلى شرط ساء فهم بعض الناس فيه، وهو قول بعض الفقهاء: يشترط ألا يجر النهي إلى منكر أعظم، وهذا شرط قد خرم مزية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإتخذه المسلمون ذريعة لترك هذا الواجب، ولقد ساء فهمهم فيه؛ إذ مراد مشترطه أن يتحقق الآمر أو يغلب على ظنه أن أمره يجر إلى منكر أعظم، لا أن يخاف أو يتوهم بلا سبب.

٣- وفي الآية دليل على علو شأن هذه الفريضة، وللغزالي كلام نفيس في بيان أهمية الأمر والنهي، حيث يقول رحمه الله: «إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم

(١) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٤٦).

الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة، وسد هذه الثلمة إما متكفلاً بعملها، أو متقلداً لتنفيذها مجدداً لهذه السنة الداثرة ناهضاً بأعبائها، ومتشمراً في إحيائها كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها[1] انتهى.

(١) الإحياء (ح٢ ص٢٠٦ - ٢٠٧) بتصرف يسير.

۞ الآية الثالثــة:

خيرية هذه الأمة مرهونة بقيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [١١٠ سورة آل عمران].

في هذه الآية يبين الله عز وجل أن هذه الأمة هي خير الأمم وأفضلها وأكرمها على الله، وأن هذه الخيرية مناطة بالقيام بشعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر التي جعلها الله السبب الأول في خيرية هذه الأمة، فبها سمت، وبها ارتفعت على غيرها من الأمم، وبها تحصل النجاة من الهلكة.

وهذه الخصلة كانت موجودة في الأمم السابقةكما سبق الإشارة إلى ذلك إلا أنه من العجيب كيف تربط خيرية هذه الأمة بها؟

والجواب: أن الأمم السابقة وإن كانت واجبة عليها إلا أنها أخفقت فيها، ونجحت فيها هذه الأمة، فهي القائمة بها إلى قيام الساعة.

فبنو إسرائيل مثلاً: أتاهم النقص والعذاب من هذه الجهة؛ وهي أنهم تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مع أنه كان مفروضاً عليهم؛ فقد جاء عن ابن مسعود أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما وقع النقص في بني إسرائيل كان الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه، ثم لا يمنعه منه من الغد أن يكون خليطه وشريبه، فضرب الله بقلوب بعضهم على بعض، وأنزل فيهم القرآن: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى

لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [٧٨ سورة المائدة] إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [٨١سورة المائدة][١].

يقول سيد قطب -رحمه الله-: «ولقد نجحت هذه الأمة في مواطن كثيرة حيث أخفق بنو إسرائيل، ومن ثم نزع الله الخلافة في الأرض من بني إسرائيل، وائتمن عليها هذه الأمة، ومكنّ لها في الأرض ما لم يمكن لأمة قبلها، إذ أن منهج الله لم يتمثل تمثلاً كاملاً في نظام واقعي يحكم الحياة كلها كما تمثل في خلافة الأمة المسلمة»[٢].

وبسبب القيام بهذه الفريضة كانت هذه الأمة خير الأمم، وأما تفضيل بني إسرائيل على العالمين، فقد قال فيه القرطبي: "يريد على عالمي زمانهم؛ لأن أهل كل زمان عالم، وقيل: على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء، وهذا خاصة لهم، وليست لغيرهم»[٣].

وقيل: إنما حصل لهذه الأمة الخيرية على غيرها من الأمم لأجل أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر بآكد الوجوه وهو القتال، قال الفخر الرازي: «فإن قيل: من أي وجه يقتضي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والإيمان بالله كون هذه الأمة خير الأمم مع أن هذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم؟

والجواب: قال القفال: تفضيلهم على الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر بآكد الوجوه

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (ج٦/ ص٧٩- ٧٥٤٤).
(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٤٣٥).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (ج٣ص ٣٧٦).

وهو القتال؛ لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللسان وباليد، وأقواها ما يكون بالقتال؛ لأنه إلقاء للنفس في خطر القتل، وأعرف المعروفات الدين الحق، والإيمان بالتوحيد والنبوة، وأنكر المنكرات: الكفر بالله، فكان الجهاد في الدين محملاً لأعظم المضار لغرض إيصال الغير إلى أعظم المنافع، وتخليصه من أعظم المضار، فوجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات؛ ولما كان أمر الجهاد في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع لا جرم، صار ذلك موجباً لفضل هذه الأمة على سائر الأمم، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [١١٠ سورة آل عمران] تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويقروا بما أنزل الله، وتقاتلونهم عليه و«لا إله إلا الله» أعظم المعروف، والتكذيب هو أنكر المنكر.

ثم قال القفال: فائدة القتال على الدين لا ينكره منصف، وذلك لأن أكثر الناس يحبون أديانهم بسبب الإلف والعادة، ولا يتأملون في الدلائل التي تورد عليهم، فإذا أكره على الدخول في الدين بالتخويف بالقتل دخل فيه، ثم لا يزال يضعف ما في قلبه من حب الدين الباطل، ولا يزال يقوى في قلبه حب الدين الحق إلى أن ينتقل من الباطل إلى الحق، ومن استحقاق العذاب الدائم إلى استحقاق الثواب الدائم[١].

أما ابن عاشور رحمه الله فيقول: «لم يثبت أن صالحي الأمم كانوا يلتزمون الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إما لأنه لم يكن واجباً عليهم، أو لأنهم كانوا يتوسّعون في حل التقية، وهذا هارون في زمن

(١) مفاتيح الغيب (ح ٨ ص ١٥٧ - ١٥٨).

موسى عبدت بنو إسرائيل العجل بمرأى منه ومسمع، فلم يغيّر عليهم، وقد حكى الله محاورة موسى معه بقوله: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [٩٢-٩٤ سورة طـه].

وأما قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهّ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [١١٣-١١٤ سورة آل عمران] فتلك فئة قليلة من أهل الكتاب، هم الذين دخلوا في الإسلام، مثل عبد الله بن سلام، وقد كانوا فئة قليلة بين قومهم، فلم يكونوا جمهرة الأمة»[(١)] انتهى كلامه.

وفي قوله: ﴿كنتم﴾: أي: وما زلتم؛ لأن الفعل (كان) يدل على وجود ما يسند إليه في زمن مضى، دون دلالة على استمرار، ولا على انقطاع إلا بالقرائن، قال صاحب روح البيان: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كنتم من (كان) الناقصة التي تدل على تحقق شيء بصفة في الزمان الماضي من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق، ويحمل على الدوام أو الانقطاع بحسب معونة المقام، ودلالة القرائن، فقولك: (كان زيدٌ قائماً) محمول على الانقطاع، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُّ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠] محمول على الدوام، ومنه قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[(٢)].

فـ(كان) هنا إذن إما أن تكون من (كان) التامة، والمعنى: وجدتم

(١) التحرير والتنوير (ح٣ ص١٨٧ - ١٨٩).
(٢) تفسير روح البيان (٢/ ٦٣).

وخلقتم خير أمة، على هذا الوصف الثابت لكم جبلةً وطبعاً، أو الناقصة، والمعنى: كنتم في علم الله خير أمة، أو في الأمم الذين كانوا قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة.

وقد ذكر ابن عادل في اللباب في (كان) هذه ستة أقوال:

أحدها: أنها ناقصة على بابها، وإذا كانت كذلك فلا دلالة لها على مُضِيٍّ وانقطاع، بل تصلح للانقطاع، نحو: (كان زيدٌ قائماً) وتصلح للدوام، كقوله: ﴿وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: ٩٦] وقوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] فهي هنا بمنزلة: لم يزل، وهذا بحسب القرائن.

وقال الزمخشري: "كان عبارة عن وجود الشيء في زمنٍ ماضٍ على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق، ولا على انقطاع طارئ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: ٩٦] وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] كأنه قيل: وُجِدتم خيرَ أمة"[1].

وقال أبو حيان تعليقاً على كلام الزمخشري: قوله: "لم يدل على عدم سابق" هذا إذا لم يكن بمعنى: (صار) فإذا كان بمعنى: (صار) دلت على عدم سابق، فإذا قلتَ: (كان زيدٌ عالماً) بمعنى: (صار زيدٌ عالماً) دل على أنه نقل من حالة الجَهْل إلى حالة العلم.

وقوله: "ولا على انقطاع طارئ" قد ذكرنا قبل أن الصحيح أنها كسائر الأفعال، يدل لفظ المُضِيّ منها على الانقطاع، ثم قد يستعمل حيث

(١) الكشاف (ج١/ ص٣١١).

لا انقطاع، وفرق بين الدلالة والاستعمال، ألا ترى أنك تقول: «هذا اللفظ يدل على العموم» ثم قد يستعمل حيث لا يراد العموم، بل يراد الخصوص.

الثاني: أنها بمعنى: (صرتم) و(كان) تأتي بمعنى: (صار)كثيراً، كقوله: [من الطويل]:

بتيهاء قفرٍ المطيُّ كأنها قَطَا الحزنِ قد كانت فِرَاخاً بُيُوضُها

أي: صارت فراخاً.

الثالث: أنها تامة بمعنى: (وجدتم) و ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾على هذا منصوب على الحال، أي: وجدتم على هذه الحال.

الرابع: أنها زائدة، والتقدير: أنتم خير أمة، وهذا قول مرجوح.

الخامس: أنها على بابها، والمراد: كنتم في علم الله، أو في اللوح المحفوظ، أو في الأمم السالفة، مذكورين بأنكم خير أمة.

السادس: أن هذه الجملة متصلة بقوله: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾ [١٠٧سورة آل عمران] أي: فيقال لهم يوم القيامة: "كنتم خير أمة" وهو بعيد جِدًّا[1].

وعبر بالماضي في قوله: (كنتم): لأن الفعل قد يأتي على بنية الماضي وهو حاضر أو مستقبل؛ كقوله تعالى في هذه الآية: ﴿كنتم﴾ ومعناه: أنتم، ومثله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى﴾ [١١٦ سورة المائدة] أي: وإذ يقول، ومثله: ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾ [١ سورة النحل] أي: سيأتي، ومثله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [٢٩ سورة مريم] أي: من هو في المهد، ومثله: ﴿وَكَانَ اللهُ

(١) اللباب في علوم الكتاب (ج٤/ ص٢٧١).

سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [١٣٤ سورة النساء] أي: والله سميع بصير، ومثله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [٩ سورة فاطر] أي: فنسوقه[١].

والخطاب في قوله: ﴿كنتم﴾ إما لأصحاب الرسولﷺ، ونقل ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عباس، قال عمر: هذه لأولنا، ولا تكون لآخِرنا، وعلل بعضهم إن الخطاب لأصحاب محمد بقوله: إذ لو شاء الله تعالى لقال: (أنتم) وكان هذا التشريف حاصلاً لكلنا، ولكن قوله: ﴿كُنتُمْ﴾ مخصوص بقوم معينين من أصحاب الرسولﷺ، وهم السابقون الأولون[٢].

ولا شك أن الصحابة كانوا أفضل القرون التي ظهرت في العالم؛ لأن رسولهم أفضل الرسل؛ ولأن الهدى الذي كانوا عليه لا يماثله هدى أصحاب الرسل الذين مضوا، فإن أخذت الأمة باعتبار الرسول فيها فالصحابة أفضل أمة من الأمم مع رسولها، قال النبيﷺ: (خير الناس قرني)[٣] والفضل ثابت للجموع على المجموع، وإن أخذت الأمة من عدا الرسول فكذلك الصحابة أفضل الأمم التي مضت بدون رُسلها، وهذا تفضيل للهدى الذي اهتدوا به، وهو هدى رسولهم محمدﷺ وشريعته.

وإما أن يكون الخطاب بضمير ﴿كنتم﴾ للمسلمين كلهم في كل جيل ظهروا فيه، ومعنى تفضيلهم بالأمر بالمعروف مع كونه من فروض

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٤٣٩) بتصرف.
(٢) انظر: جامع لطائف التفسير (١٦/ ٩)بتصرف.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢/ ٩٣٨ – ٢٥٠٨) وفي غيره من الأبواب، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم رقم (٢٥٣٣).

الكفايات لا يقوم به جميع أفراد الأمة؛ لأنه لا يخلو مسلم من القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمر، على حسب مبلغ العلم، ومنتهى القدرة، فمن التغيير على الأهل والولد، إلى التغيير على جميع أهل البلد.

أو لأن وجود طوائف القائمين بهذا الأمر في مجموع الأمة أوجب فضيلة لجميع الأمة؛ لكون هذه الطوائف منها كما كانت القبيلة تفتخر بمحامد طوائفها، وفي هذا ضمان من الله تعالى بأن ذلك لا ينقطع من المسلمين إن شاء الله تعالى[١].

والراجح أن الخطاب في الآية للمؤمنين الذين تلقوا الوحي من النبيﷺ، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء والمدح؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية يقول: «يا أيها الناس مَنْ أراد أن يكون من هذه الأمةِ فليُؤَدِّ شَرْط الله فيها»[٢].

وهذا ما أيده الفخر الرازي حيث قال: «قال الزجاج: قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ظاهر الخطاب فيه لأصحاب النبيﷺ، ولكنه عام في كل الأمة، ونظيره قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿كتب عَلَيْكُم القصاص﴾ [البقرة: ١٧٨] فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ، ولكنه عام في حق الكل كذا ها هنا"[٣].

قوله: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: أفضل الأمم وخيرها، يقول ابن كثيررحمه الله-: "يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، فقال: ﴿كُنتُمْ

(١) جامع لطائف التفسير (١٦/ ١١).
(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٦٣).
(٣) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٥٦).

خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [١١٠ سورة آل عمران].

والإضافة في قوله: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف: أي كنتم أمةً خير أمة أخرجت للناس، فالمراد بالأمة الجماعة، وأهل العصر النبوي مثل القرن، وهو إطلاق مشهور، ومنه قوله تعالى: ﴿وادّكَر بعد أمَّة﴾ [يوسف:٤٥] أي: بعد مدة طويلة كمدة عصر كامل.

والمراد بـ(أمة) عموم الأمم كلها على ما هو المعروف في إضافة أفعل التفضيل إلى النكرة أن تكون للجنس، فتفيد الاستغراق[١].

فيكون معنى: ﴿كنتم خير أمة﴾ أي: وجدتم على حالة الأخيرية على جميع الأمم، أي: حصلت لكم هذه الأخيرية بحصول أسبابها ووسائلها؛ لأنهم اتصفوا بالإيمان، والدعوة للإسلام، وإقامته على وجهه، والذب عنه النقصان والإضاعة، فلما جُعل ذلك من واجبهم، وقد قام كل بما استطاع، فقد تحقّق منهم القيام به، أو قد ظهر منهم العزم على امتثاله، كلما سنح سانح يقتضيه، فتحقق أنهم خير أمة على الإجمال.

وهذا الكلام في الآية سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق، والدعوة إلى الخير كذا قيل، أو للتعليل لأمرهم بالدعوة إلى الخير، يقول ابن عاشور: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [١١٠سورة آل عمران] يتنزّل هذا منزلة التَّعليل لأمرهم بالدعوة إلى الخَير وما بعده، فإن قوله: ﴿تأمرون بالمعروف﴾ حال من ضمير (كنتم) فهو مؤذن بتعليل كونهم خيرَ أمة، فيترتب عليه أن ما كان فيه خيريتهم يجدر أن يفرض

(١) التحرير والتنوير (ح٣ ص١٨٧- ١٨٩).

عليهم إن لم يكن مفروضاً من قبل، وأن يؤكد عليهم فرضه إن كان قد فرض عليهم من قبل[١].

«وهذه الخيرية التي قدرها الله لهذه الأمة منوطة بتحقيق أمرين:

الأول: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

والثاني: الإيمان المطلق بالله، والإذعان له، وتفويض الأمور إليه بعد الأخذ بالأسباب، واعتقاد أنه لا قوة في هذا الوجود غير قوته، ولا معبود بحق سواه، ولا خضوع لأحد كائناً من كان غيره تعالت قدرته، فليست الخيرية التي خاطب الله بها المهاجرين والأنصار والذين يتبعونهم لأنهم مسلمون فقط، أو لأشخاصهم وذواتهم، بل لأنهم متصفون بأوصاف هي علة هذه الخيرية، ومناط تلك الرفعة الإلهية، وتلك الأوصاف هي: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله[٢].

وهذه الخيرية أيضاً عامة في الدنيا وفي الآخرة، تنبني عليها السعادة في الدارين؛ من سعة الرزق والأمن والطمأنينة والنصرة على الأعداء وغيرها، وكذلك في الآخرة بدخول الجنان، ورضا الرحمن.

وقد جاء عن النبيﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: (إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها، وأكرمها على الله)[٣].

يقول الشيخ السعدي -رحمه الله-: «فهذا تفضيل من الله لهذه الأمة

---

(١) التحرير والتنوير (ج١/ ص٨٠٤).

(٢) انظر: زهرة التفاسير (١/ ١٣٥٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٧) والترمذي (٥/ ٢٢٦ - ٣٠٠١) وقال: حديث حسن، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: (٢٣٠١).

بهذه الأسباب التي تميزوا بها، وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس نصحًا، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليمًا، وإرشادًا، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وجمعًا بين تكميل الخلق، والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان»[١].

وليست هذه الخيرية مرادفة للقوة، فالخيرية هي أن يكون المجتمع فاضلاً يقوم بحق العدل، وأن يكون كل شيء فيه بقسطاس مستقيم، وأن تسوده الأخلاق الكريمة، والسلوك القويم، وأما القوة فالأمر فيها لسيطرة المادة، والغلبة والاستعداد الحربي، وإنا نرى أقوى الأمم الآن أشدها انتهاكاً لحرمات الفضيلة في داخلها وخارجها، ومن الأمم الضعيفة ما يكون للفضيلة فيها موضع، وللأمانة فيها سلطان، وللحق فيها أنصار، ولا شك أنها أقرب إلى الخير من تلك الأمم القوية.

وفي الجملة فإن القوة تستمد من المادة إذا انفصلت عن الفضيلة، والخيرية تستمد من الحق والعدل والفضائل الإنسانية، والمساواة بين بني الإنسان من غير عصبية جنسية أو إقليمية، وهما في عصرنا الحاضر متمايزان لسيطرة المادة على الأقوياء، وفقدانهم قوة الإيمان[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [١١٠ سورة آل عمران] قولان:

الأول: أن المعنى كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار، فقوله: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: أظهرت للناس حتى تميزت وعُرفت، وفُصل بينها وبين غيرها.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٠٩).

(٢) انظر: زهرة التفاسير (١/ ١٣٥٥) بتصرف يسير.

والثاني: أن قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ من تمام قوله: ﴿كُنتُمْ﴾ والتقدير: كنتم للناس خير أمة، ومنهم من قال: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ صلة، والتقدير: كنتم خير أمة للناس(١).

قال ابن عاشور: "وقوله: ﴿أخرجت للناس﴾ الإخراج مجاز في الإيجاد والإظهار، كقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ [طه: ٨٨] أي: أظهر بصوغه عجلاً جسداً، والمعنى: كنتم خير الأمم التي وجدت في عالم الدنيا، وفاعل: ﴿أخرجت﴾ معلوم، وهو الله موجد الأمم، والسائق إليها ما به تفاضلها، والمراد بالناس جميع البشر من أول الخليقة(٢).

وفي التعبير بـ﴿أخرجت﴾ دلالة على أن الله أعدها وأخرجها بعناية للناس، يقول سيد قطب:"إن القرآن وهو يُنشِيء هذه الأمة ويُنَشِّئها، وهو يخرجها إلى الوجود إخراجاً، كما قال الله تعالى في التعبير القرآني الدقيق: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [١١٠سورة آل عمران] إن القرآن وهو يُنْشِيء هذه الأمة من حيث لم تكن؛ ويُنَشِّئها لتصبح أمة فريدة في تاريخ البشر: ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ ويجب أن نؤكد هذه الحقيقة ونوضحها قبل المضي في الحديث: حقيقة إنشاء القرآن لهذه الأمة وتنشئتها معاً، فقد كانت على التحقيق إنشاء وتنشئة، كانت ميلاداً جديداً للأمة؛ بل ميلاداً جديداً للإنسان في صورة جديدة، ولم تكن مرحلة في طريق النشأة؛ ولا خطوة في سبيل التطور، ولا حتى وثبة من

(١) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٥٦ - ١٥٧).
(٢) التحرير والتنوير (ح٣ ص١٨٩).

وثبات النهضة! إنما كانت على وجه التحديد نشأة وميلاداً للأمة العربية وللإنسان كله"[١].

وفي قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ أوجه:

أحدها: أن تتعلق بـ﴿أُخْرِجَتْ﴾ ومعناه: ما أخرج الله أمة خيراً من أمة محمدﷺ، وفي الحديث: (ألا وَإِنَّ هَذِه الأمة تُوفِّي سبعين أمة، أنتم خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله تَعَالَى)[٢].

الثاني: أنه متعلق بـ(خير) أي: أنتم خير الناس للناس.

قال أبو هريرة: معناه: كنتم خير الناس للناس؛ تجيئون بهم في السلاسل، فتُدْخلونهم في الإسلام[٣].

وقال قتادة: هم أمة محمد ﷺ، لم يؤمر نبيٌّ قبله بالقتال، فهم يقاتلون الكفار، فيُدْخلونهم في الإسلام، فهم خير أمةٍ للناس[٤].

والفرق بينهما من حيث المعنى أنه لا يلزم أن يكونوا أفضلَ الأمم في الوجه الثاني من هذا اللفظ، بل من موضع آخر.

الثالث: أنه متعلِّق من حيث المعنى لا من حيث الإعراب، بـ﴿تَأْمُرُونَ﴾ على أن مجرورَها مفعول به، فلما تقدم ضَعُفَ العامل، فَقُوِّيَ بزيادة اللام، كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] أي:

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٦١- ١١٦٠٤) والترمذي (٥/ ٢٢٦) رقم (٣٠٠١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٣) رقم (٤٢٨٨) والحاكم (٤/ ٩٤) رقم (٦٩٨٧) والطبراني (١٩/ ٤٢٧) رقم (١٠٣٨) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (ج٢/ ص٤٢٦ ٣٤٦١).

(٣) تفسير ابن عادل (ح٥ ص٤٦٢ - ٤٦٧).

(٤) تفسير ابن عادل (ح٥ ص٤٦٢ - ٤٦٧).

إن كنتم تعبرون الرؤيا[١].

فخيرية هذه الأمة يرجع لنفعها المتعدي للناس، كونهم خير الأمم لبني آدم، وأنفعهم لهم، وأعظمهم إحساناً إليهم؛ لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، يعاقبونهم بالقتل والأسر، ومقصودهم بذلك الإحسان إليهم، وسوقهم إلى كرامة الله ورضوانه، وإلى دخول الجنة، قال أبو هريرة -رضي الله عنه-: "كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل، تدخلونهم الجنة"[٢].

وقال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان عن مَيْسَرة عن أبي حازم عن أبي هريرة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خَيْرَ الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام[٣].

وهكذا قال ابن عباس ومُجاهد وعِكْرِمة وعَطاء والربيع بن أنس وعطية العَوْفي: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [١١٠ سورة آل عمران] يعني: خَيْرَ الناس للناس، والمعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [١١٠ سورة آل عمران].

(١) تفسير ابن عادل (ح٥ ص٤٦٢ - ٤٦٧).

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد في كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع (ح(٤٣٥١) ومسلم في كتاب الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم (ح (١٠٦٤) وقد جاء بمعناه عن جماعة من الصحابة.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] (٦/ ٣٧- ٤٥٥٧).

وهذه الخيرية لا تثبت لهذه الأمة إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة، فإذا تركتها لم تكن لها هذه المزية، فمن لم يتصف من هذه الأمة بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩] أي: لا ينهى بعضهم بعضاً عن ارتكاب المآثم والمحارم، وذمهم على ذلك لنحذر من ارتكاب

مثل الذي ارتكبوه، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [٧٩ سورة المائدة] مؤكداً بلام القسم تقبيحاً لصفتهم، وتحذيراً من سوء فعلهم.

وقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ [١١٠ سورة آل عمران] فهذه هي الصفات التي فضلوا بها على غيرهم، قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر﴾ مدح هذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير، وتَواطَئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سبباً لهلاكهم[1].

وجملة: (تأمرون بالمعروف) موقعها من الإعراب: إما أن تكون جملة حالية من ضمير الخطاب، وإما أن تكون كلاماً مستأنفاً مفصولاً؛ ولذا قال الفخر الرازي في التفسير الكبير: "اعلم أن هذا الكلام مستأنف، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية، كما تقول: زيد كريم، يطعم الناس ويكسوهم، ويقوم بما يصلحهم، وتحقيق الكلام: أنه ثبت في أصول الفقه: أن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، فهنا حكم بثبوت وصف الخيرية لهذه

(١) تفسير القرطبي (ح٤ ص١٧٣).

الأمة، ثم ذكر عقيبه علة هذا الحكم"[١].

(والألف واللام) في لفظ: ﴿المعروف﴾ ولفظ: ﴿المنكر﴾ يفيدان الاستغراق، وهذا يقتضي كونهم آمرين بكل معروف، وناهين عن كل منكر، و﴿المعروف﴾ هو كل ما عرفه الشرع وأجازه، و﴿المنكر﴾ هو ما خالف ذلك؛ لأنه (أل) في المعروف والمنكر تقتضي الاستغراق، أي: أنهم يأمرون بكل معروف، وينهون عن كل منكر، فإذا أمروا بشيء فلا بد أن يكون معروفاً، وإذا نهوا عن شيء فلا بد أن يكون منكراً، وإذا كانوا بهذا الوصف فإنه يجب قبول قولهم، وهذا هو معنى حجية الإجماع.

ففي هذه الآية دليل على أن إجماع الأمة حُجَّة: يقول الفخر الرازي: «احتج أصحابنا بهذه الآية على أن إجماع الأمة حُجَّة، وتقريره من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق﴾ [الأعراف: ١٥٩] ثم قال في هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ فوجب بحكم هذه الآية أن تكون هذه الأمة أفضل من أولئك الذين يهدون بالحق من قوم موسى، وإذا كان هؤلاء أفضل منهم وجب أن تكون هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق؛ إذ لو جاز في هذه الآية أن تحكم بما ليس بحق لامتنع كون هذه الأمة أفضل من الأمة التي تهدي بالحق؛ لأن المبطل يمتنع أن يكون خيراً من المحق، فثبت أن هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق، وإذا كان كذلك كان إجماعهم حجة.

الوجه الثاني: وهو (أن الألف واللام) في لفظ: ﴿المعروف﴾ ولفظ: ﴿المنكر﴾ يفيدان الاستغراق، وهذا يقتضي كونهم آمرين بكل معروف،

(١) تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) (٨/ ١٥٧).

وناهين عن كل منكر، ومتى كانوا كذلك كان إجماعهم حقاً وصدقاً لا محالة، فكان حجة[١].

وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله هذا المعنى بقوله: «...فإن إجماع هذه الأمة حجة؛ لأن الله تعالى أخبر أنهم يأمرون بكل معروف، وينهون عن كل منكر؛ فلو اتفقوا على إباحة محرم، أو إسقاط واجب؛ أو تحريم حلال، أو إخبار عن الله تعالى أو خلقه بباطل لكانوا متصفين بالأمر بمنكر، والنهي عن معروف؛ بل الآية تقتضي أن مالم تأمر به الأمة فليس من المعروف، وما لم تنه عنه فليس من المنكر، وإذا كانت آمرة بكل معروف، ناهية عن كل منكر، فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر، أو تنهى كلها عن معروف؟!»[٢].

إذاً فالمعروف في هذه الآية كلمة جامعة لكل ما أمر الله به، أمر إيجاب أو أمر استحباب، والمنكر: كلمة جامعة، لكل ما نهى الله عنه; فأعظم ما نهى الله عنه الشرك، والكفر، ووسائلهما، وذرائعهما.

«فالمعروف الذي تُقْدم الأمة الإسلامية على الأمر به هو الحق وهو الخير، وهو الفضيلة، وهو العدل، وهو الرحمة، وهو كل هذه الآداب السامية، والشِّيَمُ الجميلة التي أتى بها الإسلام، والتي يتضمَّنها الإيمان، مُبتدِئةً بإماطة الأذى عن الطريق، حتى تنتهي بشهادة: أن لا إله إلا الله.

والمُنكَر الذي تُحاربه الأمة الإسلامية، وتنتهي عنه إنما هو الرذيلة بجميع ضُروبها، وهو الظلم على اختلاف ألوانه، وهو التعدِّي غَدْرًا

(١) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٥٦) وانظر: جامع لطائف التفسير (١٦/ ١٣).
(٢) الفتاوى (٢٨/ ١٢٥).

وخِيانة، وهو كل ضرْبٍ مِن ضروب البطش والجَبَرُوت.

إن الأمة الإسلامية خير أمةٍ أُخرجت للناس لأمْرِها بالمعروف، ونهْيِها عن المُنكَر، ثُم لإيمانها بالله الذي حدَّد الله في نِطاقه تحديدًا كاملاً الخير والشر»[١].

ومن الفوائد من قوله: ﴿تأمرون﴾ أي: على سبيل التجدد والاستمرار؛ لأنها جملة فعلية تفيد التجدد، فهذه صفتهم مستمرة لا تنقطع إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بالله﴾ المراد به الإيمان الشامل بجميع ما يجب الإيمان به؛ لأن الإيمان إنما يعتد به، ويستحق أن يقال له: إيمان إذا آمن بالله تعالى على الحقيقة، وحقيقة الإيمان بالله تعالى أن يستوعب جميع ما يجب الإيمان به، فلو أخل بشيء منه لم يكن من الإيمان بالله تعالى في شيء، والمقام يقتضيه لكونه تعريضاً بأهل الكتاب، وأنهم لا يؤمنون بجميع ما يجب الإيمان به كما يشعر بذلك التعقيب بنفي الإيمان عنهم، مع العلم بأنهم مؤمنون في الجملة، وأيضاً المقام مقام مدح للمؤمنين بكونهم خير أمة أخرجت للناس، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها المعلل للخيرية، فلو لم يرد الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به لم يكن مدحاً، فلا يصلح للتعليل والعطف يقتضيه[٢].

فالإيمان بالله عز وجل، والدعوة إليه، والنصح والتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر، وإشاعة الخير والفضيلة بين الناس،

(١) انظر: فتاوى عبد الحليم محمود (١/ ٢٤٦).
(٢) روح المعاني (ح٤ ص٢٨) بتصرف.

ومحاربة الشر والرذيلة والفساد، واستئصاله من المجتمع من أبرز سمات هذه الأمة التي فاقت بها سائر الأمم؛ لأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في هذا الدين، والمهمة الكبرى للأنبياء والمرسلين والصالحين، بل قد عده بعض أهل العلم ركناً سادساً من أركان الإسلام.

فإن قيل: لمَ أخر الإيمان عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة كما هو الظاهر؟

الجواب: قيل: لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهما أظهر في الدلالة على الخيرية، ويجوز أن يقال: قدمهما عليه للاهتمام، وكون سوق الكلام لأجلهما، وأما ذكره فكالتتميم، ويجوز أيضاً أن يكون ذلك للتنبيه على أن جدوى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في الدين أظهر مما اشتمل عليه الإيمان بالله تعالى؛ لأنه من وظيفة الأنبياءعليهم الصلاة والسلام-، ولو قيل: قدما وأخر للاهتمام؛ وليرتبط بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [١١٠ سورة آل عمران] لم يبعُد[1].

وقيل: قُدما لأنهما سياج الإيمان وحفاظه، فكان تقديمها في الذكر موافقاً للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدماً عليه.

قال ابن عاشور: "وإنما قدّم ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ على قوله: ﴿وتؤمنون بالله﴾ لأنهما الأهم في هذا المقام المسوق للتنويه بفضيلة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الحاصلة من قوله

(١) روح المعاني (ح٤ ص٢٨) بتصرف.

تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [١٠٤ سورة آل عمران] والاهتمام الذي هو سبب التقديم يختلف باختلاف مقامات الكلام، ولا ينظر فيه إلى ما في نفس الأمر؛ لأن إيمانهم ثابت محقّق من قبل.

وإنما ذكر الإيمان بالله في عداد الأحوال التي استحقوا بها التفضيل على الأمم؛ لأن لكل من تلك الأحوال الموجبة للأفضلية أثراً في التفَّضيل على بعض الفرق، فالإيمان قصد به التفضيل على المشركين الذين كانوا يفتخرون بأنهم أهل حرم الله، وسدنة بيته، وقد ردّ الله ذلك صريحاً في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ﴾ [١٩ سورة التوبة] وذكر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر قصد به التفضيل على أهل الكتاب، الذين أضاعوا ذلك بينهم، وقد قال تعالى فيهم: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوه﴾ [٧٩ سورة المائدة][(١)].

وقد ذكر الزرقاني سبب هذا التقديم بقوله: «وهكذا قدم الله الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على الإيمان به تنويهاً بجلالتهما، وحثاً على التمسك بحبلهما، وإشارة إلى أن الإيمان بالله لا يصان، ولا يكون إلا بهما[(٢)].

وقال القاسمي في محاسن التأويل: «وإنما أخر ذلك عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة؛ لأن دلالتهما على خيريتهم للناس أظهر من دلالته عليها؛ وليقترن به ما بعده»[(٣)].

(١) التحرير والتنوير (ج١/ ص٨٠٥).
(٢) مناهل العرفان (١/ ٢٢٤).
(٣) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) (١/ ١٠).

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله-: «ولا نعلم السر في هذا التقديم إلا عظم شأن هذا الواجب، وما يترتب عليه من المصالح العظيمة العامة، ولا سيما في هذا العصر، فإن حاجة المسلمين وضرورتهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شديدة؛ لظهور المعاصي، وانتشار الشرك والبدع في غالب المعمورة»[١].

وعلل الرازي سبب التقديم بقوله: «أن الإيمان بالله أمر مشترك فيه بين جميع الأمم المحقة، ثم إنه تعالى فضل هذه الأمة على سائر الأمم المحقة فيمتنع أن يكون المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الإيمان الذي هو القدر المشترك بين الكل، بل المؤثر في حصول هذه الزيادة هو كون هذه الأمة أقوى حالاً في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من سائر الأمم، فإذن المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأما الإيمان بالله فهو شرط لتأثير هذا المؤثر في هذا الحكم؛ لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات مؤثراً في صفة الخيرية، فثبت أن الموجب لهذه الخيرية هو كونهم آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، وأما إيمانهم فذاك شرط التأثير، والمؤثر ألصق بالأثر من شرط التأثير؛ فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان[٢].

ويقول صاحب زهرة التفاسير: "وهنا قد يسأل سائل: لماذا قدم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على الإيمان؟ ولماذا اقتصر في الإيمان على

(١) وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص :٤-٥).
(٢) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٥٧ - ١٥٨).

الإيمان بالله، ولم يذكر الإيمان بالرسل والملائكة واليوم الآخر والحساب والعقاب وغير ذلك مما يوجبه الإيمان، ولا يعد الشخص مؤمناً إلا به؟

ويجاب عن السؤال الأول:

بأن ذكر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مقدماً لبيان أنه مطلوب لذاته، وأنه فضيلة لا تختلف فيها الأمم، ولا الجماعات، فهو كالصدق والعدل والحق تتفق عليها الأفهام، بل ولا يمكن أن يتحقق بنيان جماعة من غير تحققه، وإلا كانت كالذئاب الضارية، أو كانت كالوحوش في الغابة، والإيمان سياح الجماعة وحمايتها من أن تضل، وكأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو الذي يقوم به بناء الجماعة، والإيمان هو الذي يحميها، ويسدد خطاها، فذكر ما يقوم به البناء، ثم ذكر ما يكون به ذلك البناء في دائرة الفضيلة والأخلاق الكريمة وهو الإيمان، وفى الحقيقة هما متلازمان، فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والتواصي بالحق يتبعه إيمان، والإيمان الحق بالله تعالى والإذعان لأوامره ونواهيه يتبعه حتماً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما لماذا اقتصر على ذكر الإيمان بالله؟ فهو أن الإيمان بالله هو لب الإيمان بكل أجزائه وعناصره، فالإيمان بالله هو الإذعان المطلق لقوة غيبية تسير هذا الكون وتدبره، وتقوم على كلاءته وحمايته، والإيمان بقوة غيبية يقتضي الإيمان برسالتها للناس، ويقتضي الإيمان بالأرواح الطاهرة المطهرة، والإيمان بأن الله لم يخلق هذه الأشياء عبثاً، وإن ذلك يقتضي الإيمان بقدرة الله على الإعادة، كما بدأ الخلق بالتكوين، وبأن هنالك يوماً آخر فيه الحساب، وإن من يؤمن بالله ولا يؤمن بهذه العناصر كلها لا

يكون مؤمناً بالله حق الإيمان، ولا مذعناً لأحكامه حق الإذعان؛ ولذا كان أهل الكتاب الذين أعلنوا إيمانهم بالله، وأنكروا رسالة الرسول ﷺ مع قيام البينات عليها غير مؤمنين وغير مذعنين للحق الذي ارتضاه الله»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [١١٠ سورة آل عمران] يعني: كما أنكم اكتسبتم هذه الخيرية بسبب هذه الخصال، فأهل الكتاب لو آمنوا لحصلت لهم أيضاً صفة الخيرية، والله أعلم.

يقول الرازي: "فيه وجهان:

الأول: ولو آمن أهل الكتاب بهذا الدين الذي لأجله حصلت صفة الخيرية لأتباع محمدعليه الصلاة والسلام لحصلت هذه الخيرية أيضاً لهم، فالمقصود من هذا الكلام ترغيب أهل الكتاب في هذا الدين.

الثاني: إن أهل الكتاب إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة، واستتباع العلوم، ولو آمنوا لحصلت لهم هذه الرياسة في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة، فكان ذلك خيراً لهم مما قنعوا به.

واعلم أنه تعالى أتبع هذا الكلام بجملتين على سبيل الابتداء من غير عاطف، إحداهما: قوله: ﴿مِّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون﴾ [آل عمران: ١١٠] وثانيتهما: قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ [١١١ سورة آل عمران].

قال صاحب الكشاف: هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإن من

(١) زهرة التفاسير لمحمد أبو زهرة (١/ ١٣٥٥).

شأنه كيت وكيت؛ ولذلك جاء ﴿آمن﴾ غير عاطف[١].

وفي قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [١١٠سورة آل عمران] اسم (كان) ضمير يعود على المصدر المدلول عليه بفعله، والتقدير: لكان الإيمان خيراً لهم، كقولهم: «من كذب كان شراً له» أي: كان الكذب شراً له؛ كقوله تعالى: ﴿اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [٨ سورة المائدة].

وقول الشاعر: [من الوافر]

إذَا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَى إلَيْهِ وَخَالفَ، وَالسَّفِيهُ إلى خِلاَفِ

أي: جرى إليه السفه.

والمفضل عليه محذوف، أي: خيراً لهم من كُفْرهم، وبقائهم على جَهْلهم.

وقال ابن عطية: ولفظة (خير) صيغة تفضيل ولا مشاركة بين كُفْرهم وإيمانهم في الخير، وإنما جاز ذلك لما في لفظه (خير) من الشياع وتشعب الوجوه، وكذلك هي لفظة (أفضل) و(أحب) وما جرى مجراها.

وقال أبو حيان: «وإبقاؤها على موضوعها الأصلي أولى إذا أمكن ذلك وقد أمكن إذ الخيرية مطلقة، فتحصل بأدْنى مشاركة»[٢].

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [١١٠ سورة آل عمران] قال الآلوسي: ﴿مّنْهُمُ المؤمنون﴾ كعبد الله بن سلام وأخيه وثعلبة بن شعبة ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى، وعبر عن الكفر بالفسق إيذاناً بأنهم خرجوا عما أوجبه كتابهم،

(١) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٥٨).
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب (ج٤/ ص٢٧٦).

وقيل: للإشارة إلى أنهم في الكفار بمنزلة الكفار في العصاة لخروجهم إلى الحال الفاحشة التي هي منهم أشنع وأفظع[١].

وقال ابن عاشور: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: منهم من آمن بالنبي محمد ﷺ فصدق عليه لقب المؤمن، مثل عبد الله بن سلام.... ويحتمل أن يكون المعنى من أهل الكتاب فريق متّق في دينه، فهو قريب من الإيمان بمحمدﷺ، وهؤلاء مثل من بقي متردداً في الإيمان من دون أن يتعرض لأذى المسلمين، مثل النصارى من نجران ونصارى الحبشة، ومثل مخيريق اليهودي قبل أن يسلم، على الخلاف في إسلامه، فإنه أوصى بماله لرسول اللهﷺ، فالمراد بإيمانهم صدق الإيمان بالله وبدينهم، وفريق منهم فاسق عن دينه، محرف له، مناوٍ لأهل الخير، كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [٢١ سورة آل عمران] مثل الذين سَمُّوا الشاة لرسول الله يوم خيْبر، والذين حاولوا أن يرموا عليه صخرة[٢].

وهنا سؤالان:

السؤال الأول: الألف واللام في قوله: ﴿المؤمنون﴾ هل هي للاستغراق أو للمعهود السابق؟

والجواب: بل للمعهود السابق، والمراد: عبد الله بن سلام ورهطه من اليهود، والنجاشي ورهطه من النصارى.

السؤال الثاني: الوصف إنما يذكر للمبالغة، فأي مبالغة تحصل في

(١) روح المعاني (ح٤ ص٢٨).
(٢) التحرير والتنوير (ح٣ ص١٩١ - ١٩٢).

وصف الكافر بأنه فاسق؟!

والجواب: الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وقد يكون فاسقاً في دينه، فيكون مردوداً عند الطوائف كلهم؛ لأن المسلمين لا يقبلونه لكفره، والكفار لا يقبلونه لكونه فاسقاً فيما بينهم، فكأنه قيل: أهل الكتاب فريقان: منهم من آمن، والذين ما آمنوا فهم فاسقون في أديانهم، فليسوا ممن يجب الاقتداء بهم ألبتة عند أحد من العقلاء[1].

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

أن هذه الآية تدل على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو سبب خيرية هذه الأمة، وهو قوام الأمم، ولا صلاح لهم إلا إذا قاموا بحقه، فالأمم تصلح بالأمر بالمعروف، وتفسد بتركه؛ ولذلك اعتبره القرآن خاصة الأمة الإسلامية، وبه خيرها، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [١١٠ سورة آل عمران] فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو عصام الأمة، وهو مكون الرأي العام الفاضل، ويقال: إن الأمة كلها تعصي إذا ظهر العصيان، ولم تستنكره.

والمجتمع الفاضل لا يقوم إلا على الأمر بالمعروف، أي: كل ما هو معروف لا تنكره العقول السليمة، والنهي عن كل أمر تنكره العقول السليمة، فإن المجتمع الفاضل ظلٌ لكل خلق سليم ينمو في ظله الوارف؛ ولذا كانت أمة محمد أمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وهذا ظاهر، فما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب إلا للأمر بالمعروف

(١) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٥٨).

الذي رأسه وأصله: التوحيد، والنهي عن المنكر الذي رأسه وأصله: الشرك والعمل لغير الله؛ وشرع الجهاد لذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأمر والنهي، ولولا ذلك ما قام الإسلام، ولا ظهر دين الله، ولا علت كلمته، ولا يرى تركه والمداهنة فيه إلا من أضاع حظه ونصيبه من العلم والإيمان.

ومراتب الإنكاركما بينتها السنة ثلاث: باليد واللسان والقلب، وثالثها أضعفها إيماناً، فعدم إنكار المنكر بالقلب دليل على ذهاب الإيمان، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هلك من لم يعرف المعروف، وينكر المنكر بالقلب»[1] يشيررضي الله عنه إلى أن معرفته المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد، فمن لم يعرفه هلك، ومتى سكت الإنسان عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر تطلباً لرضا الخلق، واستجلاباً لمودتهم فهو أخبث حالاً من مرتكب المنكر.

ولهذا يقول ابن القيم -رحمه الله-: «ليس الدين بمجرد ترك المحرمات بل والقيام مع ذلك بالأمور المحبوبة لله عز وجل كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيله، والنصرة لله ورسوله وكتابه ودينه، والنصح لعباده؛ وأقل الناس ديناً، وأمقتهم لله من ترك هذه الواجبات، وإن زهد في الدنيا جميعها، وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله، ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء، وقد ذكر أبو عمر وغيره: أن الله تعالى أمر ملكاً من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال: يا رب

(١) شعب الإيمان (٦/ ٩٥ ٧٥٨٨) ومصنف ابن أبي شيبة (٨/ ٦٦٧- ١٢٧).

إن فيهم فلاناً العابد الزاهد، قال: به فابدأ، وأسمعني صوته، إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط»[١].

أما صوره: «فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر يأخذ صوراً شتى، فقد يُنصح المنصوح سراً، وقد ينصح علانية، وقد ينصح بالقول، وقد ينصح بالفعل، وقد يؤمر باليد، أو باللسان، أو بغير ذلك من الوسائل التي ذكرها أهل العلم، وفصلوا فيها، ولا يرتبط هذا بقضية الفتنة، بل إن الفتنة في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ ولهذا قال -الله عز وجل-: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:٤٩] فالذي ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو الذي وقع في الفتنة، ودعا إليها؛ لأن الفتنة هي أن تترك الأمة مميزاتها ومقوماتها لتتحول من أمة مسلمة إلى أمة تأتي إلى الشرق والغرب، فتأخذ ما سقط من فتات موائدهم، وحثالات أفكارهم، وتتلمذ على مناهجهم، وتتخلى عن سر تميزها وقوتها وبقائها، وهو إيمانها والتزامها بهذا المبدأ، الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ومن ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر سلط الله عز وجل عليه من الآفات والمصائب في المال، وفي الاقتصاد، وفي الاجتماع، وفي الأمور المختلفة، وفي عدم إجابة الدعاء، وفي التفرق والتشتت، وفي التناحر الداخلي، وفي كثرة الآلام والمصائب والنكبات، وفي تسليط الأعداء الخارجيين، ما لا قبل لهم به، والعاصم من هذا كله -بإذن الله تعالى- هو إحياء شعيرة الأمر بالمعروف، والنهي

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (٢٢/ ٣٧).

عن المنكر، مهما كانت ثقيلة على النفوس»[١].

والقيام بهذا الواجب هو خاصة الأمة الإسلامية، ومصدر عزتها: «ولا يصح أن يتخلى عنه، وليس في مصادر الشريعة ولا في مواردها ما يُسوّغ التخلي، وأن ترك القول في أيام الفتن الطحياء[٢] التي يكون القول فيها مؤدياً إلى زيادة في الفتن والاتهام، فلا يجدي قول، ولا يهدي فكر إلى الرشاد، عندئذٍ يكون السكوت أولى من الكلام، حتى تهدأ عجاجة الفتنة، وتعود القلوب إلى جنوبها، ويوجد السميع، ولكن في هذه الحال يكون الإنكار القلبي، وإرشاد القابلين للإرشاد، في غير ضجيج ولا عجيج، والله سبحانه وتعالى راد الحق إلى نصابه، والقضب إلى أجفانها، وهو بكل شيء عليم»[٣].

ومما جاء من فضائل لهذه الشعيرة العظيمة:

أن الله تعالى امتدح من يقوم بها من الأمم على غيرهم، حيث قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِّ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١١٤ سورة آل عمران].

وذم الله من تركوا الأمر والنهي منهم، فقال: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[٦٣ سورة المائدة].

---

(١) انظر: دروس للشيخ سلمان العودة (٤٧/ ٣٤) بتصرف.
(٢) من الطحح وهو الهلاك، كما في هامش زهرة التفاسير.
(٣) زهرة التفاسير (١/ ٢٣٨٠).

يقول سيد قطب -رحمه الله- تعليقاً على هذه الآية وواصفاً حال المجتمع الذي يتغافل عن هذه الشعيرة أو يهملها: «فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد؛ والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات، وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام، وكذلك أكلهم للحرام، فأكل الحرام كذلك سمة يهود في كل آن، لبئس ما كانوا يعملون، ويشير السياق إلى سمة أخرى من سمات المجتمعات الفاسدة؛ وهو يستنكر سكوت الربانيين القائمين على الشريعة، والأحبار القائمين على أمر العلم الديني سكوتهم على مسارعة القوم في الإثم والعدوان وأكل السحت؛ وعدم نهيهم عن هذا الشر الذي يتسابقون فيه: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[٦٣ سورة المائدة] فهذه السمة سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الديني عما يقع في المجتمع من إثم وعدوان هي سمة المجتمعات التي فسدت، وآذنت بالانهيار، وبنو إسرائيل كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، كما حكى عنهم القرآن الكريم.

إن سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهي، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، وهكذا وصف الله الأمة المسلمة فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾[١١٠ سورة آل

عمران] ووصف بني إسرائيل فقال: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [٧٩ سورة المائدة] فكان ذلك فيصلاً بين المجتمعين، وبين الجماعتين، أما هنا فينحي باللائمة على الربانيين والأحبار الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت; الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله، وإنه لصوت النذير لكل أهل دين، فصلاح المجتمع أو فساده رهن بقيام الحفظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر; والأمر كما قلنا من قبل في الظلال يقتضي سلطة تأمر وتنهى، والأمر والنهي أمر غير الدعوة، فالدعوة بيان، والأمر والنهي سلطان، وكذلك ينبغي أن يحصل الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر على السلطان الذي يجعل لأمرهم ونهيهم قيمته في المجتمع; فلا يكون مطلق كلام»[(١)].

ولا بد أن يعلم أن الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر بين المسلمين إنما هم في الحقيقة يقومون بمهام الرسل في أقوامهم وذويهم، فبقدر الاستجابة لنصحهم تكون الحجة والنجاة، والعكس بالعكس، فإذا تواطأت الأمة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استحقت العقوبة العامة، ولا تحصل النجاة إلا لمن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر.

فإذا أراد المرء المسلم أن يتحقق بالخير، وأن يرى طريقاً يحقق به خير نفسه وخير قلبه، وخير أهله، وخير أولاده، وخيره مع الناس جميعاً، وأن يكون محلاً للخير عليه أن يسلك أفضل الطرق والقرب والطاعات التي

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٣٩٢).

يتقرب بها العبد لربه ألا وهي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يقول ابن القيم: «فإن النافع هو المبارك، وأنفع الأشياء أبركها، والمبارك من الناس أينما كان هو الذي يُنتفع به حيث حل»[(١)].

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة، وكلها تدل بمنطوقها ومفهومها أنه يتعين على كل مسلم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومساعدة من قام به، كل على حسب حاله، فتارك إنكار المنكر مع القدرة على إنكاره كمرتكبه؛ وهو من الفاسقين الداخلين في الوعيد، وبالتعاون على إنكار المنكر يقوم الدين، ويتم الخير، وتستقر النعم، وتبقى الآداب والأخلاق الفاضلة؛ وبتركه ومداهنة أهله ينتشر الفساد، ويظهر الفجور، فتعم العقوبة، والعياذ بالله من غضبه.

إذن فالواجب على المسلم أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر؛ لأنه من أسمى الوظائف الإسلامية، بل هو أشرفها وأعلاها، وهو وظيفة الأنبياء والرسل -عليهم السلام-، وهي الشعيرة التي يُنافَحُ بها عن الدين، ويُنصح للمسلمين عن التردي في هوة صيحات العابثين، وبه تُحْرَسُ الفضائل، وتكبت الرذائل، ويؤخذ على أيدي السفهاء، والتقاعس عنها أمره خطير، وشره مستطير، وقد يكون سبباً في تعميم العقاب، وعدم استجابة الدعاء.

ولا يجوز لهذه الأمة أن تتنصل عن واجبها، وكيف تتخلى عن رسالتها وعن تميزها الذي ميزها الله به؟! هل أخرج الله هذه الأمة لتكون في ذيل القافلة تلهث وراء الركب؟! وهل أخرجها لتصبح صورة مقلدة

(١) زاد المعاد (٤/ ١٤١).

بل مشوهة من الجاهلية؟! ألم يخرجها لتكون قائدة ورائدة وشاهدة على كل البشرية؟!

«أنها أمة لا تتقوقع حول نفسها، ولا تنحصر في ذاتها، بل هي أمة ابتعاث وإخراج إلى الناس بنور القرآن والسنة، أمة تمشي بالنور في الناس وليس في المسلمين فقط، أمة أمرها الله تعالى بالسير في الأرض كلها اثنتي عشرة مرة، وبالضرب في الأرض أربع مرات، وبالمشي فيها أربعاً أخرى، أي عشرين مرة سيراً وضرباً ومشياً»[1].

«ولا بد لنا أن نذكر بأن الأمة الإسلامية مسئولة مسئولية كبيرة عن هذا الفساد الحادث اليوم في الأرض، وإن هذه الأمة لم يخرجها الله ويجعلها خير أمة في التاريخ لتعيش في حدود نفسها فحسب، بل لتكون قائدة ورائدة لكل البشرية، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[(١١٠) سورة آل عمران] وقد ظل الخير يعم البشرية كلها حين كانت هذه الأمة قائمة برسالتها، تنشر النور والهدى في آفاق الأرض، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وتدعو إلى الإيمان، فلما تخلت هذه الأمة عن رسالتها في القرون الأخيرة، وأصابها الضعف والوهن تبعاً لذلك، فقد تولت قيادة البشرية أمة جاهلية لا تؤمن بالله ورسله، ولا تحكم شريعته في الحياة، ومن ثم أتيحت الفرصة لشياطين الجن والإنس أن يعيثوا فساداً في الأرض، وينشروا الكفر بدلاً من الإيمان، ولن تصلح الأرض مرة أخرى حتى يعود المسلمون عودة صادقة إلى دينهم الحق، وعندئذٍ يتحقق

(١) انظر: الخلاصة في فقه الأقليات (١/ ٣٤).

وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين والتأمين كما تحقق مرة من قبل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٥٥ سورة النــور]»[١].

---

(١) ركائز الإيمان (١/ ١٥٥).

❁ الآية الرابعة:

التلازم بين الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١١٤ سورة آل عمران].

هذه الآية ذكرها الله بعد قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١١٣ سورة آل عمران] ثم قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١١٤ سورة آل عمران]. فهذا صف لبعض أهل الكتاب بهذه الصفات، وهي فئة قليلة منهم، وهم الذين دخلوا في الإسلام، مثل: عبد الله بن سلام، وقد كانوا فئة قليلة بين قومهم، فلم يكونوا جمهرة الأمة.

قال السعدي -رحمه الله تعالى-: «لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه (يؤمنون بالله واليوم الآخر) (ويأمرون بالمعروف) وهو الخير كله، (وينهون عن المنكر) وهو جميع الشر، كما قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[١٥٩سورة الأعراف] (ويسارعون في الخيرات) والمسارعة إلى الخيرات قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها، وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب»[(١)].

(١) تفسير السعدي (ج١/ ص٩٧٢).

وقال ابن عباس: لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد وأسيد بن سعية، ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا، ورغبوا في الإسلام، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله -عز وجل- في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ﴾[١١٣ سورة آل عمران]... إلى قوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١١٤ سورة آل عمران][(١)].

وقد علق (ابن تيمية) على هذه الآية بقوله: "فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى، بل هي مذكورة بعد قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ﴾[آل عمران:١١٠] إلى أن قال: «والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم في ذلك حكم اليهود، والله تعالى إنما أثنى على مَن آمن مِن أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى في آل عمران نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالرسول الله ﷺ، لكنه لم تمكنه الهجرة إلى رسول الله ﷺ، ولا العمل بشرائع الإسلام؛ لكون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام، وقد قيل: إن رسول الله ﷺ إنما صلى عليه لما مات لأجل هذا...»[(٢)].

(١) روح المعاني (٤/ ٣٣).
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج١، ص ٢٦٤ - ٢٦٥).

وعلى كلٍ فالآيتان جاءتا تحملان الدلالة الصريحة على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو الطريق الصحيح والمنهج الحق، وأنه لا يستوي من قام به، ومن أهمله وفرّط فيه، فقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران: ١١٣، ١١٤].

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾[آل عمران:١١٣] أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن، ومنهم المجرم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾[آل عمران:١١٣] أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله، فهي قائمة يعني: مستقيمة(١).

ومفهوم هذه الآية أن الأمة التي ليست كذلك، ولم تتصف بهذه الصفات فهي أمة منحرفة ضالة زائغة.

وتؤكِّد الآيات الكريمة على عدم تساوي أهل الكتاب في مراتب الجودة والفلاح، ومدى تفهُّمهم للإيمان الحقيقي، وينابيعه الصافية، وجوهره النقي، فعلى الرغم من انحراف أكثرهم، فإن طائفة منهم قد سطع في قلوبهم نور الحقيقة، فهم يقومون لله فيتلُون آياته، ويُصَلُّون بخشوع وإيمان، ساجدين له، مقرِّين بفضله، ناشدين قربه، قد آمنوا بالله الواحد الأحد، وأن يوم الحساب آتٍ لا ريب فيه، واستعدَّوا بأعمالهم لمثل هذا اليوم، وصاروا منارات للهدى، فدلُّوا الخلائق إلى سبل الخير والعلم والفلاح، وأنقذوهم من براثن الفسق والانحلال والجهل، وقد

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٧).

نشطوا في إتمام البناء الأخلاقي بهمة وثبات، وكأنهم يسابقون الزمن، فاستحقُّوا أن يكونوا هداة مهديين، صالحين ومصلحين[١].

وهذه الآية من الآيات التي يستدل بها البعض على جواز التقارب مع اليهود والنصارى حيث ينزلونها على أهل الكتاب الحاليين، والآية ليس لها علاقة بأهل الكتاب الحاليين، وإنما هي خاصة بأولئك الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام وغيره من الصحابة الذين كانوا يهوداً فأسلموا، وحسن إسلامهم.

وفي قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء﴾[آل عمران:١١٣] قيل: معناها: ليس أهل الكتاب وأمه محمد ﷺ سواءاً ثم تمّ الكلام، واستُؤنف بعد ذلك ﴿من أهل الكتاب﴾وهم الذين اتبعوا محمداً ﷺ، وآمنوا به، وصدقوه.

قال القرطبي -رحمه الله-: "﴿ليسوا سواء﴾وتمّ الكلام، والمعنى: ليس أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ سواء[٢].

وقال ابن كثير: «قال ابن أبي نَجِيح: زَعَم الحسن بن يَزيد العِجْليّ عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾[آل عمران:١١٣] قال: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ، وهكذا قال السدي.

ويؤيد هذا القول الحديثُ الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو النَّضْر وحسن بن موسى قالا: حدثنا شَيْبان، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: أخر رسولُ الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى

(١) القرآن منهاج حياة (٣/ ٨٩).
(٢) تفسير القرطبي (ج٤/ ص١٧٥).

المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة: فقال: (أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم) قال: وأُنزلت هذه الآيات: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾[آل عمران:١١٣] إلى قوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١١٥][1].

والمشهور عن كثير من المفسرين -كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس- أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وأسد بن عُبيد، وثعلبة بن سَعْية، وأسَيد بن سعْية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾أي: ليسوا كلُّهم على حد سواء، بل منهم المؤمن، ومنهم المُجْرم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾[آل عمران:١١٣] أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشَرْعه، مُتَّبعة نبيَّ الله، فهي ﴿قَائِمَةٌ﴾يعني: مستقيمة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[آل عمران:١١٣] أي: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران:١١٤] وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لله لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهّ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[آل عمران:١٩٩] وهكذا قال ها هنا: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ﴾[آل عمران:١١٥] أي: لا يضيع عند الله، بل

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٦).

يجزيكم به أوفر الجزاء»[1].

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٤] المراد بهذا الإيمان الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به على الوجه المقبول، وكرر الاسم الأعظم إشارة إلى استحضارهم لعظمته، فقال: ﴿بالله﴾أي: الذي له من الجلال، وتناهي الكمال ما حير العقول.

وقوله: ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[آل عمران:١١٤] لما قال: ﴿يؤمنون بالله﴾أتبعه بذكر اليوم الذي تظهر فيه عظمته كلها؛ لأنه الحامل على كل خير، فقال: ﴿واليوم الآخر﴾أي: إيماناً يعرف أنه حق بتصديقهم له بالعمل الصالح بما يرد عليهم من المعارف التي ما لها من نفاد، فيتجدد تهجدهم فتثبت استقامتهم.

وخص الله تعالى اليوم الآخر بالذكر إظهاراً لمخالفتهم لسائر اليهود، فيما عسى أن يتوهم متوهم مشاركتهم لهم فيه؛ لأنهم يدعون أيضاً الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، لكن لما كان ذلك مع قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾[٣٠ سورة التوبة] وكفرهم ببعض الكتب والرسل، ووصفهم اليوم الآخر بخلاف ما نطقت به الشريعة المصطفوية جعل هو والعدم سواء.

قال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران:١١٤] صفة لهؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا بالله ورسوله، ودعوا الناس إلى تصديق النبي ﷺ، والإنكار على من خالفه، فكانوا ممن قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ

(١) تفسير ابن كثير (ج ٢/ ص ١٠٥).

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠] في الآية المتقدمة.

وقوله:﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[آل عمران:١١٤] لما وصفهم بالاستقامة في أنفسهم وصفهم بأنهم يُقوّمون غيرهم، فقال: ﴿ويأمرون بالمعروف﴾أي: مجددين ذلك مستمرين عليه ﴿وينهون عن المنكر﴾كذلك.

وفي قوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران:١١٤] قال الفخر: "قوله: ﴿وينهون عن المنكر﴾اعلم أن الغاية القصوى في الكمال أن يكون تاماً وفوق التمام، فكون الإنسان تاماً ليس إلا في كمال قوته العملية والنظرية وقد تقدم ذكره، وكونه فوق التمام أن يسعى في تكميل الناقصين، وذلك بطريقين:

إما بإرشادهم إلى ما ينبغي، وهو الأمر بالمعروف، أو بمنعهم عما لا ينبغي، وهو النهي عن المنكر، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ﴿يأمرون بالمعروف﴾أي: بتوحيد الله، وبنبوة محمد ﷺ، ﴿وينهون عن المنكر﴾أي: ينهون عن الشرك بالله، وعن إنكار نبوة محمد ﷺ، واعلم أن لفظ المعروف والمنكر مطلق فلم يجز تخصيصه بغير دليل، فهو يتناول كل معروف، وكل منكر[1].

وقال الآلوسي في قوله: ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[آل عمران:١١٤] فيه إشارة إلى وفور نصيبهم من فضيلة تكميل الغير إثر الإشارة إلى وفوره من فضيلة تكميل النفس، وفيه تعريض

(١) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٦٦).

بالمداهنين الصادين عن سبيل الله تعالى[١].

وقوله: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[آل عمران:١١٤] لما ذكر فعلهم للخير ذكر نشاطهم في جميع أنواعه، فقال: ﴿ويسارعون في الخيرات﴾قال الرازي: «قوله: ﴿ويسارعون في الخيرات﴾فيه وجهان:

أحدهما: أنهم يتبادرون إليها خوف الفوت بالموت.

والآخر: يعملونها غير متثاقلين، فإن قيل: أليس أن العجلة مذمومة، قال -عليه الصلاة والسلام-: (العجلة من الشيطان، والتأني من الرحمن)[٢] فما الفرق بين السرعة وبين العجلة؟

قلنا: السرعة مخصوصة بأن يقدم ما ينبغي تقديمه، والعجلة مخصوصة بأن يقدم ما لا ينبغي تقديمه، فالمسارعة مخصوصة بفرط الرغبة فيما يتعلق بالدين؛ لأن من رغب في الأمر آثر الفور على التراخي، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[آل عمران: ١٣٣] وأيضاً العجلة ليست مذمومة على الإطلاق، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾[طه: ٨٤][٣].

وقال الألوسي في قوله: ﴿ويسارعون في الخيرات﴾أي: يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات خوف الفوات بالموت مثلاً، أو يعملون الأعمال الصالحة راغبين فيها غير متثاقلين لعلمهم بجلالة موقعها، وحسن

(١) روح المعاني (ح٤ ص٣٤ - ٣٥).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (ج٤/ ص٨٩- ٤٣٦٧) عن أنس بلفظ: (التأني من الله والعجلة من الشيطان) وحسنه الألباني في صحيح الجامع انظر حديث رقم: (٣٠١١).

(٣) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٦٦).

عاقبتها، وهذه صفة جامعة لفنون الفضائل والفواضل، وفي ذكرها تعريض بتباطؤ اليهود وتثاقلهم عن ذلك، وأصل المسارعة المبادرة، وتستعمل بمعنى الرغبة، واختيار صيغة المفاعلة للمبالغة، وقيل: لم يعبر بالعجلة للفرق بينها وبين السرعة، فإن السرعة التقدم فيما يجوز أن يتقدم فيه، وهي محمودة، وضدها الإبطاء، وهو مذموم، والعجلة التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه، وهي مذمومة، وضدها الأناة، وهي محمودة.

وإيثار (في) على (إلى) وكثيراً ما تتعدى المسارعة بها للإيذان، كما قال شيخ الإسلام: بأنهم مستقرون في أصل الخير، متقلبون في فنونه، لا أنهم خارجون (عنها) منتهون إليها؛ وصيغة جمع القلة هنا تغني عن جمع الكثرة، كما لا يخفى[1].

وقوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران:١١٤] هذه إشارة إلى من جمع هذه الصفات الست، أي: الموصوفون بهذه الصفات من جملة الصالحين، الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم، وهذا غاية المدح من وجهين:

الأول: أن الله مدح بهذه الصفة أكابر الأنبياء، فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصالحين﴾[الأنبياء: ٨٦]، وقال: ﴿فَإِنَّ اللهَّ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التحريم: ٤].

الثاني: أن الصلاح ضِدُّ الفساد، فكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك في العقائد، أو في الأعمال، وإذا كان كذلك كان

(١) روح المعاني (ح٤ ص٣٤ - ٣٥).

كل ما ينبغي أن يكون صلاحاً فكان الصَّلاحُ دالاً على أكمل الدرجات.

ويجوز في (مِنْ) أن تكونَ للتبعيض، وهو الظاهر، وَجَعَلها ابن عطية لبيانِ الجنسِ، وفيه نظرٌ، إذ لم يتقدَّمْ مبهمٌ فتبيِّنْه هذه[1].

والظاهر أن في الوصف بالصلاح زيادة على الوصف بالإسلام؛ ولذلك سأل هذه الرتبة بعض الأنبياء، فقال تعالى حكاية عن سليمان على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[١٩ سورة النمل] وقال تعالى في حق إبراهيم -عليه السلام-: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١٣٠ سورة البقرة] وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾[٧٢ سورة الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[٨٥-٨٦ سورة الأنبياء] وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[٦٩ سورة النساء].

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١- في الآية دليل على أن من خصال الصالحين هذه الصفات التي ذكرت في الآية، ومنها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فمن لم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر، فلا يستحق هذا الوصف، ودلت الآية الكريمة على عدم صلاحهم بمجرد الإيمان.

قال أبو حامد الغزالي -رحمه الله-: «فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد

(١) اللباب في علوم الكتاب (ج٤/ ص٢٨٥).

الإيمان بالله، واليوم الآخر، حتى أضاف عليه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[١].

وقال الرازي: «قوله: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران:١١٤] والمعنى: وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله تعالى ورضيهم، واعلم أن الوصف بذلك غاية المدح، ويدل عليه القرآن والمعقول.

أما القرآن: فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٨٦ سورة الأنبياء] وذكر حكاية عن سليمان -عليه السلام- أنه قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[١٩ سورة النمل] وقال: ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤ سورة التحريم].

وأما المعقول: فهو أن الصلاح ضد الفساد، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك في العقائد، أو في الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون، فقد حصل الصلاح، فكان الصلاح دالاً على أكمل الدرجات[٢].

وقال الآلوسي عن الضمير ﴿من الصالحين﴾أي: من عداد الذين صلحت عند الله تعالى حالهم، وهذا رد لقول اليهود: ما آمن به إلا شرارنا، وقد ذهب الجل إلى أن في الآية استغناء بذكر أحد الفريقين عن

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٧).
(٢) مفاتيح الغيب (ح٨ ص١٦٦ - ١٦٧).

الآخر، على عادة العرب من الاكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر، والمراد: ومنهم من ليسوا كذلك[١].

٢- وفيها: أنه ينبغي على المسلم أن يتصف بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر حتى ينتظم فيمن عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران:١١٤] وعبر بـ﴿أولئك﴾للدلالة على علو الرتبة. والله أعلم.

- وفي التعبير بقوله: ﴿مِنَ الصالحين﴾إشارة إلى أنهم بهذه المزايا، وتلك الصفات -التي منها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر- قد انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله تعالى، ووصفهم بأن أكثرهم من الفاسقين، فهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين[٢].

٣- وفيها: فضل المسابقة في الخيرات، والمبادرة إلى الصالحات.

٤- وفيها: فضل بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

٥- وفيها: فضيلة الكتابي إذا أسلم وحسن إسلامه، وفي الصحيحين يقول الرسول ﷺ: (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران)[٣]... الحديث.

---

(١) روح المعاني (ح٤ ص٣٤ - ٣٥).

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (ج١/ ص٧١٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين (ج٣/ ص ١٠٩٦- ٢٨٤٩) ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (ج١/ ص٩٣- ٤٠٤).

❁ الآية الخامسة:

ذم أحبار بني إسرائيل ورهبانهم لعدم قيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[٦٣ سورة المائدة].

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [٦٢ سورة المائدة] ثم قال الله: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[٦٣ سورة المائدة].

وهي في ذم بني إسرائيل لعدم قيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال ابن كثير: «أي: كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يركب مثل الذي ارتكبوه»(١).

فدلّ هذا على أن الساكت على المنكر أشد ممن ارتكبه؛ لأنه بسكوته جرّأ صاحب المنكر، وجرّأ غيره، ولو تناهى الناس عن المنكر لما انتشر منكر، فالرعية مؤاخذة بما اجترحت، والأحبار والرهبان مؤاخذون بما سكتوا، وإن لم يتدنوا إلى قول إثم أو أكل سحت.

يقول سيد قطب -رحمه الله-: «فهذه السمة سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الديني عما يقع في المجتمع من إثم وعدوان هي

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦١٨).

سمة المجتمعات التي فسدت، وآذنت بالانهيار، وبنو إسرائيل كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، كما حكى عنهم القرآن الكريم.

إن سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر; وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر; وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهي، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، وهكذا وصف الله الأمة المسلمة، فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[١١٠سورة آل عمران] ووصف بني إسرائيل فقال: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[٧٩ سورة المائدة] فكان ذلك فيصلاً بين المجتمعين وبين الجماعتين.

أما هنا فينحي باللائمة على الربانيين والأحبار الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان، وأكل السحت; الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله.

وإنه لصوت النذير لكل أهل دين، فصلاح المجتمع أو فساده رهن بقيام الحفظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[(١)].

ويقول ابن جرير -رحمه الله-: «وكان العلماء يقولون: ما في القرآن

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٣٩٢).

آية أشدَّ توبيخًا للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها[١].

ولقد قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾[٦٣ سورة المائدة] إنها أصعب آية في كتاب[٢]؛ لأنها تبين إثم الذين يقصرون في الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وهما عصام الأمر، ومانعا الإثم، وبهما صلاح الجماعة الإنسانية.

وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: (ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي وهم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من عنده)[٣].

وروى يحيى بن معمر أن علياً بن أبي طالب خطب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات، فأْمُروا بالمعروف، وانْهَوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً، ولا يقرب أجلاً»[٤].

وإن ما توقعه إمام الهدى علي -رضي الله عنه- قد وقع، فإن بعض الذين يتخذون من المؤمنين مكان الأحبار قد سكتوا عن النهى عن قول الإثم، بل منهم من أيد المنكر، بعد أن ارتضاه، ومنهم من مالأ في دينه يحسب أن قول الحق قد يقطع رزقاً، أو يضيع أملاً، وبذلك وقعت

(١) تفسير الطبري (ج١٠/ ص ٤٤٩).
(٢) النكت والعيون (ج١/ ص٣٦٩).
(٣) أخرجه أحمد (ج٣١/ ص٥٤٨-١٩٢١٦).
(٤) الدر المنثور (٣/ ١١١).

معاصٍ من غير استنكار، وترك الواجب في استهتار، ولا منادي بالحق.

وقوله في الآية: ﴿لولا﴾أي: هلا كان من هؤلاء الذين كان يتبعهم اليهود، ويستمعون إليهم، ويستجيبون لهم من يرشدهم إلى الحق ليتبعوه، وينهاهم عن الظلم ليجتنبوه، وقد اتخذوا أولئك الأحبار والربانيين وسطاء بينهم وبين الله ليتعرفوا حكمه عن طريقهم، ولكنهم لم يفعلوا.

قال البيضاوي: فيها تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن (لولا) إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض[1].

وقد تكون (لولا) ها هنا للتوبيخ على تقصيرهم في الماضي، وتخاذلهم عن أدائه، وإلا ما كان ذم حالهم، واستنكار أمرهم[2].

وقوله: ﴿يَنْهَاهُمُ﴾[٦٣ سورة المائدة] أي: هلا نهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس عن هذه الشرور العظيمة، وهم -أي العلماء- العارفون بالشر، ومداخل الشر، فكان لزاماً أن يبينوا للناس، والناس عليهم لزوم طاعة العلماء، والاستجابة لتحذيرهم من الشر، ونهيهم عن المعاصي.

وإنكار هؤلاء ليس كإنكار غيرهم؛ فأصحاب المنكر إما أن يستجيبوا لهم ثقة في علمهم ورأيهم، أو مجاملة وخشية، وحين يتجرؤون على مخالفتهم فهم أجرأ على مخالفة غيرهم.

ولعل ذكر نهي الأحبار للعامة عن السحت تعريض بهم؛ لأنهم كانوا لا يتعففون عن الرشا بكل أنواعها، كما أن ذكر النهي عن قول الإثم تعريض آخر بأحوالهم، فإن من قول الزور تحريف الكلم عن مواضعه،

(١) تفسير البيضاوي (ج١/ ص٣٤٤).
(٢) انظر: الكامل في اللغة والأدب (١/ ٢).

والنطق بالزور في الشرع، وكان يقع منهم؛ ولذلك ذم سبحانه صنيعهم، وهو لا يخلو من فساد حكمهم، وتغيير حكم الشرع لهوى الأقوياء منهم.

وقوله: ﴿الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ [٦٣ سورة المائدة] الربانيون: هنا هم العلماء الذين يحاولون أن يكون علمهم لله، ويتصلون بربهم حتى ينسبوا إليه، ولا يكون لهم وصف إلا نسبتهم إليه سبحانه، يزعمون ذلك في أقوالهم، ويظهرونه في أعمالهم.

وفي صحيح البخاري: يقال: الرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره[1]. انتهى.

فالرباني هو: العالم العامل المعلم المتمسك بدين الله وطاعته، البصير في سياسة الناس.

ويمكن للعبد أن يكون عبداً ربانياً إذا اتصف بهذه الصفات من العلم والحلم والحكمة والزهد والعبادة، وتعليم الناس الخير، والسبيل إلى ذلك كله هو تقوية الإيمان بالله تعالى، وكمال التصديق بوعده ووعيده.

و(الأحبار) هم الفقهاء، أو العلماء الذين يفسرون أحكام الكتاب، ويعرفون الناس بشؤون دينهم، وقد يكون من يجمع بين الوصفين، ولكن لكل وصف جانب من العمل.

قال ابن كثير -رحمه الله-: قال السدِّي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، وهو كما قال، فإن الأحبار علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾[٦٣ سورة المائدة].

(١) صحيح البخاري (ج١/ ص٣٧).

والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾[٨٢ سورة المائدة] والمقصود التحذير من علماء السوء، وعباد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فَسَد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى[١].

وقال الحسن: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾[٦٣ سورة المائدة] قال: «الفقهاء والعلماء»[٢].

وقوله: ﴿عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ﴾ [٦٣ سورة المائدة] هو كل قول باطل، ومنه قول الزور، وتحريف الكلم عن مواضعه، والنطق بالزور في الشرع، وسب الله ورسوله.

وقوله: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾[٦٣ سورة المائدة] وهو المال الحرام، ومنه الرشوة، ولم تستخدم كلمة السحت في القرآن إلا في حق اليهود، فالسحتُ كلُّ مالٍ أخِذ بغير حق، وكل مكسب بغير سبب شرعي فهو سحت، وهو من أخلاق اليهود.

والجمهور على أن السحت هو الرشا، وقيل: هو الربا، وقيل: هو الرشا، وسائر مكسبهم الخبيث[٣].

وقال الحسن -رحمه الله-: «كان الحاكم من بني إسرائيل إذا أتاه أحدهم برشوة جعلها في كمّه فأراها إياه، وتكلم بحاجته، فيسمع منه، ولا ينظر إلى خصمه، فيأكل الرشوة، ويسمع الكذب ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ

(١) تفسير ابن كثير (ج٢ص٣٥٠).
(٢) تفسير الطبري (جامع البيان) - ت شاكر (١٠/ ٣٤٣).
(٣) تفسير البحر المحيط (ج٤/ ص٤٧١).

أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[٤٢ سورة المائدة][1].

وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٦٣ سورة المائدة] قال بعض المفسرين: لبئس ما كان يصنع الربانيون من العلماء بتركهم النهي عن المنكر، والأمر بالمعروف، وقال آخرون: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٦٣ سورة المائدة] الذين يقولون الإثم، ويأكلون السحت، وكلا المعنيين صحيح.

وهنا يتكلم المفسرون في التفرقة بين ذم أعمال اليهود عامة من دهماء وغيرهم بقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٦٢ سورة المائدة] وذم أعمال الربانيين والأحبار بقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[٦٣ سورة المائدة] وخلاصة هذه التفرقة: أن العمل يكون عادة بانبعاث شهوة من طمع في مال أو لذة جسد، أما الصنيع فإنه يكون بمهارة وتدبير وتعرف للغايات والنتائج، ولو كانت آثمة، وأن الصنيع يكون بالعمل وغيره.

ومن أحسن من قال في التفرقة فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير، فقد قال موضحاً ما ذكره الزمخشري وغيره: والمعنى: أن الله تعالى استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعامتهم عن المعاصي؛ وذلك يدل أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه؛ لأنه تعالى ذم الفريقين في هذه الآية على لفظ واحد، بل نقول: إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى؛ لأنه تعالى قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٦٢ سورة المائدة] وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[٦٣ سورة المائدة] والصنع أقوى من العمل؛ لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار مستقراً راسخاً متمكناً،

(١) اللباب في علوم الكتاب (ج٦/ ص٨٢).

فجعل جرم العاملين ذنباً غير راسخ، وذنب التاركين للنهي ذنباً راسخاً متمكناً[١].

والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفاته، وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم، وما زالت المعصية كان مثل المرض الذي شرب صاحبه الدواء فما زال، وإن هؤلاء الربانيين والأحبار لم يكن ما أخذ عليهم هو السكوت عن النهي فقط، بل إنهم رتعوا فيما رتع فيه غيرهم، وبذلك ضلوا، وكانوا سبباً في فساد الجمع كله، ولعنهم وطردهم، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[٧٨-٧٩ سورة المائدة].

ومعنى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[٦٣ سورة المائدة] من ترهبهم وتعلمهم لغير دين الله، أو من تركهم نهيهم، وهذا الذم المقول فيهم أبلغ مما قيل في حق عامتهم، أولاً: لأنه لما عبر عن الواقع المذموم من مرتكبي المناكير بالعمل في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٧٩ سورة المائدة] وعبرّ عن ترك الإنكار عليهم حيث ذمه بالصناعة في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٦٣ سورة المائدة] فكان هذا الذم أشد؛ لأنه جعل المذموم عليه صناعة لهم وللرؤساء، وحرفة لازمة، هم فيها أمكن من أصحاب المناكير في أعمالهم.

وهذا معنى قول الزمخشري: كأنهم جُعِلوا آثم من مرتكبي المناكير؛ لأن كل عامل لا يسمى صانعاً، ولا كل عمل يسمى صناعة، حتى

(١) تفسير الرازي - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٢/ ٣٩٣).

يتمكن فيه ويتدرب، وينسب إليه، وكأن المعنى في ذلك أن مُوَاقِعَ المعصية معه الشهوة التي تدعوه إليها، وتحمله على ارتكابها، وأما الذي ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره، فإذا فرط في الإنكار كان أشد حالاً من المُواقِع، ثم قال الزمخشري: ولعمري إن هذه الآية مما يَقِذُّ[١] السامع، وينعى على العلماء توانيهم[٢].

والمقصود أن قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٦٣ سورة المائدة] فيه زيادة على قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٧٩ سورة المائدة] لأن العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يتدرب فيه صاحبه؛ ولهذا تقول العرب: سيف صنيع، إذا جود عامله عمله، فالصنع هو العمل الجيد، لا مطلق العمل، فوبخ سبحانه الخاصة وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعل المعاصي.

فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم، ويفرجوا لها عن قلوبهم، فإنها قد جاءت بما فيه البيان الشافي لهم بأن كفهم عن المعاصي مع ترك إنكارهم على أهلها لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هم أشد حالاً، وأعظم وبالاً من العصاة، فرحم الله عالماً قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهو أعظم ما افترضه الله عليه، وأوجب ما أوجب عليه النهوض به[٣].

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١. بيان استهتار اليهود، وعدم مبالاتهم بارتكابهم الجرائم علانية.

(١) أي ينشطه.
(٢) الكشاف (ج٢/ ص٤٤).
(٣) انظر: فتاوى الشبكة الإسلامية (٨/ ٩٧٧) بتصرف.

٢. قبح سكوت العلماء على المنكر، وإغضائهم على فاعليه؛ ولذا قال كثير من السلف في هذه الآية أنها أشد آية، وأخطرها على العلماء.

٣. في الآية دلالة على أن على العلماء أن يقوموا بواجبهم من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن ينهوا الناس عن هذه المحرمات والمنكرات والفتن وخاصة التي غزتنا في مجتمعاتنا اليوم.

٤. وفي هذه الآية أيضاً دلالة على أنه يجب كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه؛ لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه؛ ولذلك سوى الله -عز وجل- بين المستمع للإثم، وآكل السحت، فقال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[٤٢ سورة المائدة] وقال -عز وجل-: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾[٦٣ سورة المائدة] فالسكوت على الغيبة حرام، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [١٤٠ سورة النساء][(١)].

(١) انظر: جامع لطائف التفسير (٣/ ٤١٤) بتصرف.

❁ الآية السادسة:

أخبر القرآن أن من أسباب لعن بني إسرائيل تركهم هذه الفريضة تحذيراً من الاتصاف بصفتهم

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[٧٨-٧٩ سورة المائدة]

في هاتين الآيتين بيان أن بني إسرائيل كانوا يرون المنكر ويسكتون عن إنكاره، فسبَّب ذلك السكوت لهم اللعنة، وبناء عليه لا يجوز لمن رأى منكراً أن يسكت عنه مع قدرته على إنكاره وتغييره، فيبدأ بالتغيير باليد إن كان يستطيع ذلك، كأن يكون مسئولاً عن فاعل المنكر، وله سلطة عليه، فإن لم يقدر على التغيير باليد فلينكر باللسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصيحة بالتي هي أحسن، ومن الإنكار باللسان إبلاغ من يستطيع أن يمنع هذا المنكر، وعليه أن يبذل جهده في ذلك، فإن عجز عنه فقد قام بما يجب عليه، ويرفع عنه الإثم أن ينكره بقلبه، فإن قصر في إنكار المنكر بحسب استطاعته فهو شريك للعاصي في معصيته، وعليه إثم المعصية.

فإن بذل جهده وأدى واجبه في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ولم يستجب له العاصي فلا شيء عليه، قال الشيخ الشنقيطي -رحمه الله-: «ومَن أنكر بحسب طاقته فقد سلِم من هذه المعصية، ومن رضي بها وتابع

عليها فهو عاص كفاعلها»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿لُعِنَ﴾أي: لعنهم الله -عز وجل-، واللعن هو الطرد من رحمة الله، وهذا غاية في التغليظ؛ إذ علل استحقاقهم اللعنة باستهانتهم بأمر الله، وتركهم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والله -عز وجل- جعل معيار الخيرية في أي أمة هو الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، كما جعل مثار اللعنة على أي أمة ألا يُتناهى فيها عن المنكر، ولا يُؤمر بالمعروف.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٧٨ سورة المائدة] بنو إسرائيل: هم بنو يعقوب، وكان يسمى: إسرائيل، أي: سري الله، لكن لم يُذكروا في القرآن إلا أُضيفوا إلى إسرائيل، ولم يسموا في القرآن بنو يعقوب.

ومتى ذُكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب لم يسم إسرائيل، وذلك لحكمة فرقانية، وهو أن القوم لما خُوطبوا بعبادة الله، وفكروا بدين أسلافهم موعظة لهم، وتنبيهاً من غفلتهم سموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله، فإن إسرائيل اسم مضاف إلى الله تعالى في التأويل، ألا ترى كيف نبه على هذا المعنى الرسول ﷺ حين دعا إلى الإسلام قوماً يقال لهم: بنو عبد الله، فقال لهم: (يا بني عبد الله إن الله قد حسن اسم أبيكم)[٢] يحرضهم بذلك على ما يقتضيه اسمهم من العبودية لله، فكذلك قوله سبحانه:

---

(١) أضواء البيان (١/ ٤٦٧).

(٢) ورد الحديث في: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤١٨)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٣٩)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٥٦) وسيرة ابن هشام (٢: ٣٢- ٣٣).

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٤٠ سورة البقرة] إنما ورد في معرض التذكرة لهم بدين أبيهم وعبوديته لله، فكان ذكرهم بهذا الاسم أليق بمقام التذكرة، والتحريض من أن يقول لهم: يا بني يعقوب.

ولما ذكر موهبته لإبراهيم وتبشيره بإسحاق ثم يعقوب كان لفظ يعقوب أولى بذلك المقام؛ لأنها موهبة بعقب أخرى، وبشرى عُقّب بها بشرى، وإن كان اسم يعقوب عبرانياً، ولكن لفظه موافق للعربي في العقب والتعقيب، فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين، فإنه من باب النظر في إعجاز القرآن، وبلاغة ألفاظه، وتنزيل الكلام في منازله اللائقة به[١].

إذن بنو إسرائيل هم: أبناء يعقوب، ومن تناسلوا منهم فيما بعد إلى عهد موسى، ومن جاء بعده من الأنبياء، حتى عهد عيسى -عليه السلام-، وحتى عهد نبينا محمد ﷺ، وقد عرفوا (باليهود) أو بـ(يهود) من قديم الزمان، أما من آمنوا بعيسى فقد أصبحوا يطلق عليهم اسم (النصارى)، وأما من آمن بخاتم الأنبياء فقد أصبح في عداد المسلمين، ويعرفون بمسلمي أهل الكتاب[٢].

وقد أكثر الله من خطابهم ببني إسرائيل في القرآن الكريم كما قلنا سابقاً- تذكيراً لهم بأبوة هذا النبي الصالح حتى يتأسوا به، ويتخلقوا

(١) انظر: الروض الأنف (ح١ص٢٤٩) بتصرف.

(٢) اتفق العلماء أن المراد بأهل الكتاب هم اليهود النصارى، قال ابن حجر: «فأما اليهود والنصارى فهم المراد بأهل الكتاب بالاتفاق»[فتح الباري لابن حجر (ج٩/ ص٤٢٤)] إلا أنه يوجد أهل كتب غير اليهود والنصارى يقول ابن قدامة -رحمه الله-: «لكن في أهل الكتب غير اليهود والنصارى مثل أهل صحف إبراهيم وشيث وزبور داود، ومن تمسك بدين آدم، (وفيهم) وجهان، أحدهما: يقرون بالجزية لأنهم أهل كتاب فأشبهوا اليهود والنصارى»[الشرح الكبير (ج١٠/ ص٥٨٨)].

بأخلاقه، ويتركوا ما كانوا عليه من نكران نعم الله عليهم وعلى آبائهم، وما كانوا يتصفون به من الجحود والغدر واللؤم والخيانة، وكذلك ذكرهم الله سبحانه باسم اليهود في غير ما آية، وأشهر كتب اليهود هي: التوراة، وقد ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿الم * اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[١-٤ سورة آل عمران].

وقوله: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[٧٨ سورة المائدة] أي: لسانيهما، وأُفرد لعدم اللبس، إن أريد باللسان الجارحة، وقيل: المراد به الكلام، وما نزل عليهما كذا في (العناية).

وعن ابن عباس قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[٧٨ سورة المائدة] قال: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى في التوراة، ولعنوا على عهد داود في الزبور، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن، وقال قتادة: لعنهم الله على لسان داود في زمانهم، فجعلهم قردة خاسئين، وفي الإنجيل على لسان عيسى، فجعلهم خنازير[١].

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا، اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)

(١) انظر: تفسير الطبري (جامع البيان ت شاكر) (١٠/ ٤٩٠) والدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣/ ١٢٦).

ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[٧٨ سورة المائدة] إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾[٨١ سورة المائدة]ثم قال: (كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً)(١).

وفي رواية أبي عبيدة: (فضرب الله على قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم القرآن، فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[٧٨ سورة المائدة] حتى بلغ: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٨١ سورة المائدة](٢).

وضرب القلوب في هذا العقاب -نسأل الله السلامة- إن هو إلا التخبط والحيرة، وكثرة الفساد، وتيه الناس عن الجادة، والتفكك الاجتماعي والأخلاقي والنفسي... الخ، وما أقساها من عقوبة!

وفي قوله: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾[٧٨ سورة المائدة] أي: الذي كان على شريعة موسى -عليه السلام-؛ وذلك باعتدائهم في السبت، فصاروا قردة.

﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[٧٨ سورة المائدة] أي: الذي نسخ شرع موسى -عليه السلام- بكفرهم بعد المائدة، فمسخوا خنازير؛ لأنهم خالفوا النبيين معاً فلا هم تعبدوا بما دعاهم إليه داود -عليه السلام- من شرعهم الذي هم مدعون التمسك به وعارفون بأن ما دعاهم إليه منه حقاً ولا هم خرجوا عنه إلى ما أمروا بالخروج إليه على لسان موسى -عليه السلام- في بشارته به متقيدين بطاعته فلم تبق لهم علة من التقيد

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤/ ١٢١- ٤٣٣٦) وضعفه الألباني، انظر: ضعيف الجامع الصغير (ص:٢٦٢).
(٢) تفسير الطبري - جامع البيان ت شاكر (١٠/ ٤٩٣).

به، ولا التقيد بحق دعاهم إليه غيره، فعلم قطعاً أنهم مع الهوى كما مضى، ولم ينفعهم مع نسبتهم إلى واحدة من الشريعتين نسبتهم إلى إسرائيل -عليه السلام-، فإنه لا نسب لأحد عند الله دون التقوى، لا سيما في يوم الفصل؛ إذ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين[١].

قوله: ﴿ذَلِكَ﴾أي: لعنهم الهائل ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[٧٨ سورة المائدة] أي: ذلك اللعن بسبب المعصية والاعتداء، لا بسبب آخر، بل هو بسبب عصيانهم واعتدائهم بقتل الأنبياء، واستحلال المعاصي، وتركهم النهي.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف وقع ترك التناهي عن المنكر تفسيراً للمعصية والاعتداء؟ قلت: من قِبَلِ أن الله تعالى أمر بالتناهي، فكان الإخلال به معصية، وهو اعتداء»[٢].

وقال سيد قطب -رحمه الله-: «فهي المعصية والاعتداء يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء، وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء، كما فصل الله في كتابه الكريم، ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل، ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها؛ وأن يسكت عنها المجتمع؛ ولا يقابلها بالتناهي والنكير: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[٧٩ سورة المائدة].

إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين

(١) نظم الدرر (٢/ ٨١٠).
(٢) الكشاف (ج٢/ ص٥٧).

المنحرفين، فالأرض لا تخلو من الشر؛ والمجتمع لا يخلو من الشذوذ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفاً مصطلحاً عليه؛ وأن يصبحا سهلاً يجترئ عليه كل من يهم به، وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات؛ ويصبح الجزاء على الشر رادعاً وجماعياً تقف الجماعة كلها دونه؛ وتوقع العقوبة الرادعة عليه عندئذٍ ينزوي الشر، وتنحسر دوافعه، وعندئذٍ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه، وعندئذٍ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع، ولا يسمح لها بالسيطرة؛ وعندئذٍ لا تشيع الفاحشة، ولا تصبح هي الطابع العام»[1].

وقوله: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[٧٩ سورة المائدة] أي: لا ينهى بعضهم بعضاً عن فعل المعاصي، وبيان العصيان والاعتداء بترك التناهي عن المنكر؛ لأن من أخل بواجب النهي عن المنكر فقد عصى الله سبحانه، وتعدى حدوده؛ لأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، وأجل الفرائض الشرعية؛ ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية، ومستحقاً لغضب الله وانتقامه، كما وقع لأهل السبت، فإن الله سبحانه مسخ من لم يشاركهم في الفعل، ولكن ترك الإنكار عليهم، كما مسخ المعتدين فصاروا جميعاً قردة وخنازير ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٣٧ سورة ق] وجاء هذا الذم ليحذر من ارتكاب مثل الذي ارتكبوه.

وانظر في المقابل في هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠] ما هي مسوغات هذه الخيرية؟! وهل هي منحة بدون

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٤٠٥).

مقابل؟ وهل هي هبة من الله بدون شيء؟ لا، بل لها سبب، فاستحقت الأمة الحكم لها بالخيرية بأمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر.

وقوله: ﴿يَتَنَاهَوْنَ﴾من التناهي، قال الفخر الرازي: وللتناهي ها هنا معنيان:

أحدهما: وهو الذي عليه الجمهور أنه تفاعل من النهي، أي: كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً.

والمعنى الثاني: في التناهي أنه بمعنى الانتهاء عن الأمر، تناهى عنه إذا كف عنه»[١].

وهذا شر ما تصاب به الأمم حاضرها ومستقبلها: أن تفشو فيها المنكرات والسيئات والرذائل، فلا تجد من يستطيع تغييرها وإزالتها.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[٧٩ سورة المائدة] أي: وهو تركهم التناهي، عن كل منكر فعلوه، وأطلق على ترك التناهي لفظ الفعل في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾مع أنه ترك؛ لأن السكوت على المنكر لا يخلو من إظهار الرضا به، والمشاركة فيه[٢].

يقول علماء الأصول: الترك فعل في صحيح المذهب، فإذا رأى إنسان منكراً وهو يستطيع أن ينكره، وترك النهي فهو كالذي فعله، ولو أن إنساناً وجد آخر يسبح في الماء وأوشك على الغرق، ويستطيع أن ينقذه دون مضرة عليه؛ فتركه حتى غرق فهو مشارك في مسئولية غرقه، ويقولون أيضاً: لو أن إنساناً في فلاة ووجد ظمآناً يكاد أن يهلك من العطش، وعنده

(١) تفسير الفخر الرازي (ج ١٢ ص ٦٤).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (ج١/ ص١١٨٢).

فضل ماء يزيد على حاجته وتركه ولم يسقه فمات، فهو مسئول عنه[١].

وانظر كيف أكد ذلك بلام القسم في (لبئس) فكأنه سبحانه قال: أقسم لبئس ما كانوا يفعلون، وهو ارتكاب المعاصي والعدوان، وترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وكل ذلك تعجباً من سوء فعلهم، كيف لا وقد أداهم إلى ما أداهم من اللعن الكبير! فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن التناهي عن المناكير، وقلة عنايتهم به، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء، مع ما يتلون من كلام الله، وما فيه من المبالغات في هذا الباب!

وما في قوله: ﴿لبئس ما﴾جعلها الزجاج مصدرية، وقال: التقدير: لبئس شيئاً فعلهم، قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر، وقال غيره: (ما) نكرة موصوفة، التقدير: لبئس الشيء الذي كانوا يفعلون فعلاً[٢].

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١. هذه الآية تبين أن ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر سبب للعنة، حيث أخبر سبحانه أن من أسباب لعن الأمم المتقدمة من بني إسرائيل خاصة تركهم هذه الفريضة؛ تحذيراً من الاتصاف بصفتهم، أو أن نفعل مثل فعلهم، فنستحق مثل جزائهم، قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزل على داود نبيه -عليه السلام-، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله،

(١) تفسير سورة الحجرات - عطية سالم (ج٧/ ص٤).
(٢) المحرر الوجيز (ج٢/ ص٣٢٧).

واعتدائهم على خلقه، قال العوفي عن ابن عباس: لعنوا في التوراة، وفي الإنجيل، وفي الزبور، وفي الفرقان»[١].

٢. ودلت الآية على المنع من الذرائع التي تبطل مقاصد الشرع؛ لما رواه أكثر المفسرين أن الذين لعنهم داود -عليه السلام- أهل أيلة الذين اعتدوا في السبت، واصطادوا الحيتان فيه.

٣. ودلت أيضاً على وجوب النهي عن المنكر، قال الحاكم: وتدل على أن ترك النهي من الكبائر[٢].

٤. وفي الآية جواز لعن الكافر غير المعين كاليهود والنصارى وغيرهم من الكفار عموماً، فقد ورد لعنهم في كتاب الله -عز وجل-، كما في هذه الآية قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٧٨-٧٩ سورة المائدة] وجاء لعنهم في الحديث الشريف، روى الشيخان من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[٣] وهذا لا يتنافى مع قوله ﷺ: (لا يكون المؤمن لعاناً)[٤] لأن لعاناً صيغة مبالغة، ومعناها كثير اللعن، وأما

(١) تفسير ابن كثير - ط العلمية (٣/ ١٤٥).

(٢) تفسير القاسمي - محاسن التأويل (٤/ ٢٢١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر -رضي الله عنهما- (٢/ ١٠٢- ١٣٩٠) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد، على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (١/ ٣٧٦- ١٩) (٥٢٩).

(٤) أخرجه الترمذي (ت بشار) في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في اللعن والطعن(٣/ ٤٣٩- ٢٠١٩) وهو (صحيح) انظر: المشكاة (٤٨٤٨) والسنة (١٠١٤).

اللعن لمن ورد لعنه في الكتاب والسنة، فلا حرج فيه.

٥. وفي الآية: حرمة السكوت عن المنكر، ووخامة عاقبته على المجتمع.

❁ الآية السابعة:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة النبي ﷺ في الكتب السابقة

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف].

هذه الآية جاءت في بيان سمة النبي ﷺ، وصفته في الكتب السابقة، وصفته هي في سيرته الحية الناطقة، فمن أوصافه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا شك أن المعروف أعظمه التوحيد، وقد قام به خير قيام، فبدأ بالدعوة إليه، فينبغي أن يبدأ المسلم بالأمر به، والمنكر أعظمه الشرك، فيبدأ بالنهي عنه.

قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية: «هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله -عليه الصلاة والسلام-، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر... ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادة الله وحده، لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله»(١).

وهذه الصفة كما هي صفته ﷺ كما قال هنا: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ

(١) تفسير ابن كثير (ج٣/ ص٤٨٧).

وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] هي أيضاً صفة أمته، كما قال تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[التوبة: ٧١].

إذن فصفة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من أبرز الصفات التي يتميز بها النبي الأمي الذي أرسله الله رحمةً للعالمين، وبها يعرفه المؤمنون من أهل الكتاب، وباتباعهم له تكتب لهم الرحمة والرضوان، إلا أنه ومع هذه الأوصاف العظيمة التي كانوا يعرفونها مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، ومعلومة لبني إسرائيل فقد أنكروا نبوته ﷺ، وكتموا ما علموه، ولا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؛ وإن كان المشرك أظلم الظالمين إلا أن اسم التفضيل يختص بالشيء المعين الذي يشترك فيه المفضل، والمفضل عليه.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: «من أعلام نبوة محمد ﷺ أنه يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث... وإنما المدح والثناء والعلم الدال على نبوته أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنه، وكونه معروفاً، وما ينهى عنه تشهد قبحه، وكونه منكراً، وما يحله تشهد كونه طيباً، وما يحرمه تشهد كونه خبيثاً، وهذه دعوة جميع الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-، وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين والكذابين والسحرة، فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم[1].

ووفي هذه الآية بيان لكمال رسالته ﷺ، فإنه هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف، ونهى عن كل منكر، وأحل كل طيب، وحرم كل

(١) مدارج السالكين (ج١/ ص٢٣٥).

خبيث؛ ولهذا روي عنه أنه قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[١].

وقال في الحديث المتفق عليه: (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله، فجعل الناس يطوفون به، ويقولون: ما رأينا بنياناً أحسن من هذا، إلا هذه اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة)[٢] فبالنبي ﷺ كمل دين الله المتضمن للأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر، وإحلال كل طيب، وتحريم كل خبيث.

وأما من قبله من الرسل فقد كان يحرم على أممهم بعض الطيبات، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[النساء: ١٦٠] وربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[آل عمران: ٩٣].

وتحريم الخبائث يندرج في معنى النهي عن المنكر، كما أن إحلال الطيبات يندرج في الأمر بالمعروف؛ لأن تحريم الطيبات مما نهى الله عنه، وكذلك الأمر بجميع المعروف، والنهي عن كل منكر مما لم يتم إلا

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) رقم (٢٧٣)، وابن سعد في (الطبقات) (١/ ١٩٢)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، وأحمد (٢/ ٣١٨)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٦/ ٢٦٧/ ١) من طريق ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً. وقال الألباني: وهذا إسناد حسن، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي! انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ١١٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٤/ ١٨٦-٣٥٣٥) ومسلم في كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٤/ ١٧٩٠-٢٠) (٢٢٨٦).

للرسول، الذي تمم الله به مكارم الأخلاق المندرجة في المعروف، وقد قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[المائدة: ٥] فقد أكمل الله لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً[١].

وأثبتت هذه الآية أيضاً أن الكتب القديمة فيها بشارات بنبينا ﷺ، كما أنه قد ذكر باسمه على لسان المسيح -عليه السلام-، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٦ سورة الصف] ذكر أيضاً بوصفه، كما قال هنا: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] ففي الآية الأولى: ذكر اسمه، وفي الآية الثاني: ذكر وصفه ووصف شريعته.

وفي قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] (الذين) بدل من الموصول الأول بدل الكل، أو منصوب على المدح، أو مرفوع عليه، أي: أعني الذين، أو هم الذين.

وقوله: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] ﴿الرَّسُولَ﴾أي: الذي أرسل إلى الخلائق لتكميلهم، فالرسول في القرآن الكريم هو المرسل من الله تعالى لخلقه لتبليغ شريعته، وبيان التكليف الذي كلف الناس إياه، و﴿النَّبِيَّ﴾أي: الذي نبئ بأكمل الاعتقادات، والأعمال والأخلاق والأحوال والمقامات من جهة الوحي.

وهذا من النكت في هذه الآية أنها جمعت بين هذين الوصفين

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد) (١/ ٣).

(الرسول) و(النبي) فلماذا جُمع بينهما؟

قيل: إنه من باب ذكر الملزوم واللازم، فإن الرسالة تلزمها النبوة في المعنى القرآني؛ لأنه لا يعد رسولاً إلا إذا كانت نبوة عن الله، وقد تلقى العلم عن الله -جل جلاله- بوحي، أو يكلمه من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً، وذكرها -أي: وصف الرسالة والنبوة مع هذا التلازم- فيه إشارة إلى التبليغ إلى أنه ينبأ من الله تعالى.

وقيل: «إنما سماه (رسولاً) بالإضافة إلى الله تعالى، و(نبياً) بالإضافة إلى العباد» قاله البيضاوي وغيره[1].

وقيل: لتؤكد لأهل الكتاب الذين كان الحديث قبل هذه الآية فيهم أن محمداً ﷺ هو نبي رسول كموسى -عليه السلام-، وهم يعلمون جيداً في الفرق بينهما أن الرسول يأتي بشريعة جديدة يلزم اتباعها، لما تحويه من شرائع، ربما لم تكن في التي قبلها، أو كانت لكن تغيرت صفتها على ما هو معروف من سنة النسخ بين الشرائع.

وهم يعلمون أيضاً أن النبي المجرد عن الرسالة هو عادة يأتي مذكِراً، ومؤيداً شريعة الرسول قبله، وهو كذلك فمن جهة كونه نبياً قد جاء مؤيداً لمن قبله، مهيمناً على دعواتهم، مؤكداً على صدق ما جاءوا به.

ومن جهة كونه رسولاً قد جاءهم برسالة جديدة تتفق مع ما قبلها في الأصول، وربما تختلف عنها في الصفات والفروع، أي في الشرائع، وعلى هذا فمجموع الصفتين حجة عليهم في لزوم اتباعه ﷺ، لكونه قد تحقق فيه ما يعرفونه من صفات النبوة والرسالة، وإن شاءوا فليختبروا

(١) تفسير البيضاوي - أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٣٧).

ذلك فيه، وهم يعرفون من كتبهم ما يدلهم على الحق فيه بلا امتراء.

قال ابن عاشور -رحمه الله-: «ومن نكت القرآن الجمع في هذه الآية بين وصفي النبوة والرسالة؛ للإشارة إلى أن اليهود بدلوا وصف الرسول، وعبروا عنه بالنبي ليصدق على أنبياء بني إسرائيل[١] وغفلوا عن مفاد قوله -أي في نص سفر التثنية- مثلك- أي في الرسالة- وحذفوا وصف الأمي...[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿الأُمِّيَّ﴾قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "احترازاً عن سائر الأنبياء؛ فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، والسياق في أحوال بني إسرائيل، وأن الإيمان بالنبي محمد شرطٌ في دخولهم الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم[٣].

وفي قوله: ﴿الأمي﴾أيضاً مدح له -عليه السلام-، ومعنى الأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، ولا عرف أخبار الأمم السالفة، فيؤمن من جهته أن يقرأ الكتب، وينقل إليهم أخبار الماضين، ولكن مُتبع لما يوحى إليه.

ولقد كان النبي أمياً لا يقرأ ولا يكتب؛ لتكون الحجة عليهم قاطعة

---

(١) اليهود يقولون: إن هذا النبي المتحدث عنه في نص سفر التثنية هو «صمويل» لكن يرد عيلهم بالنص الذي يعتقدونه وهو نص سفر التثنية المذكور وفيه أنه نبي «مثلك» أي رسول مثلك واليهود يعرفون أن صمويل كان نبياً وليس رسولاً، والأمر الآخر: أن النص يقول: «من وسط إخوتهم» ولم يقل: منهم فخرج بذلك صمويل لأنه منهم، وظهر أن بني إخوتهم، هم أبناء إسماعيل -عليه السلام-، وعليه يكون النبي المبشر به هو محمد ﷺ.

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٣٢).

(٣) تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن (ص٢٦٨).

بنزول القرآن الذي فيه علم الأولين والآخرين، وهو لا يمكن أن يكون من أمي قط؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[٤٨ سورة العنكبوت].

ولقد حاول الذين لا يرجون للإسلام وقاراً أن يكذبوا فيدعوا أن النبي ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة ليشككوا في القرآن، وقد حاول بعض المتحذلقين من المسلمين أن يقول في هذه المقالة الكاذبة، فردهم القرآن الكريم رداً عنيفاً؛ لأنهم يسايرون الكفار الكذابين(١).

والأمي وصف مدح للنبي، فإن قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى امتن علينا بتعليمنا البيان بالقلم، كما امتن على عيسى ﷺ بقوله: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[المائدة:١١٠] فإذا كانت هذه نعماً فسؤال يطرح: لم لم يعلمها رسولنا محمد ﷺ؟ بل قال الله في شأنه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾[١٥٧ سورة الأعراف]؟! بمعنى: لماذا لم يمتن الله على نبيه محمد -عليه الصلاة والسلام- بتعليمه البيان بالقلم؟!

والعلة من ذلك -والله أعلم- ظهرت في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٨-٤٩].

فالرسول ﷺ لم يتعلم البيان بالقلم لعلة وهي: دفع الشكوك عن

(١) زهرة التفاسير (١/ ٢٩٧٠).

الذين كانوا يزعمون أن بشراً يعلم رسول الله ﷺ، كما نص على ذلك في كتاب الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[النحل: ١٠٣][1].

وما جاء في معنى الأمي: أنه نسبة إلى الأم أي: أنه جاء في العلم والكتابة كما ولدته أمه، أو نسبة إلى أمه، ذلك أن العرب لم يكونوا أهل علم وكتاب، فلم تغلب عليهم العلوم والكتابة، وإن كان فيهم من يعرفون الكتابة وبعض العلوم؛ ولذا كان يطلق عليهم الأميون، وذكر القرآن الكريم ذلك الوصف لهم، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾[٢ سورة الجمعة].

وقد نُقل أن معنى الأمي: أنه أم الموجودات، وأصل المكونات، ولا يصح هذا.

وقوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] أي: باسمه محمد وأحمد، ونعوته.

و﴿عِندَهُمْ﴾زيدت لزيادة التقرير، وأن شأنه -عليه الصلاة والسلام- حاضر عندهم، لا يغيب عنهم أصلاً.

وهذه الجملة المتضمنة هاتين الصفتين يمكن أن تكون مستأنفة، ويمكن أن تكون تفسيرية[2] أي: لقوله: (مكتوباً) بأن تكون بياناً وتفسيراً لما هو مكتوب في التوراة، وأن من صفاته في التوراة أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[١٥٧ سورة الأعراف].

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي (٤٥/ ٤).
(٢) ينظر: تفسير الآلوسي (٩/ ٨١) وتفسير المنار (٩ / ١٩٦).

ففي قوله: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] أوصاف ثلاثة، ووصف رابع ذكره الله تعالى بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] وهذا الوصف يدل على أمر بالنص، وهو أنهم يجدون النبي ﷺ مذكوراً مكتوباً في التوراة والإنجيل، وهو يدل أيضاً على أمرين آخرين:

أولهما: وحدة الديانات السماوية، فهي تدعو إلى دين واحد، قد تتغاير بعض الفروع، ولكن الأصل واحد، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[١٣ سورة الشورى].

وثانيهما: أن اليهود والنصارى قد حرفوا القول عن مواضعه، وغيروا وبدلوا، ولا يزالون يغيرون، ويبدلون على حسب أهوائهم، وقد ظهرت في مصر طبعة لإنجيل متى فيها تغيير عن سوابقها، ولا تكاد تجد نسخة مكتوبة في مصر تتلاقى في كل أجزائها مع التي جاءت من بعد، يغيرون لفظاً بدل لفظ، ويزيدون قيداً أو شرطاً، ولا يلمح ذلك القارئ العادي بادئ ذي بدء حتى يخفى ذلك على عامتهم، بل بعض خاصتهم.

ولقد ذُكر النبي ﷺ بالاسم، وذُكر بالوصف، فغيروا الاسم، وأحاطوه بما يجعله مبهماً مع ملاحظة اختلاف اللغة العربية على اللغة العبرية، ولكن الأوصاف لم يستطيعوا تغيير كثير منها، وهم يحاولون التغيير[(١)].

(١) زهرة التفاسير (١/ ٢٩٧٠) بتصرف.

قال الماوردي في (إعلام النبوة) في الباب الخمس عشر: في بشائر الأنبياء بنبوته -عليه الصلاة والسلام-: فكان أنبياء الله تعالى معانون على تأسيس النبوة، بما تقدمه من بشائره، وتبديه من أعلامها وشعائرها؛ ليكون السابق مبشراً ونذيراً، واللاحق مصدقاً وظهيراً، فتدوم بهم طاعة الخلق، وينتظم بهم استمرار الحق، وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء بنبوة محمد ﷺ، مما هو حجة على أممهم، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم، بما أطلعه الله تعالى على غيبه؛ ليكون عوناً للرسول، وحثاً على القبول، فمنهم من عيّنه باسمه، ومنهم من ذكره بصفته، ومنهم من عزاه إلى قومه، ومنهم من أضافه إلى بلده، ومنهم من خصه بأفعاله، ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره، وقد حقق الله تعالى جميعها فيه، حتى صار جلياً بعد الاحتمال، ويقيناً بعد الارتياب[1] ثم سرد الماوردي البشائر من نصوص كتبهم.

وجاء في (منية الأذكياء في قصص الأنبياء) ما نصه: «إن نبينا -عليه الصلاة والسلام- قد بشرت به الأنبياء السالفون، وشهدوا بصدق نبوته، ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته، وأطواره وسمته. غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمه من نسخهم الأخيرة- إلا أن ذلك لم يجدهم نفعاً، لقاء الصفات التي اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة، وهي أظهر دلالة من الاسم على المسمى، إذ قد يشترك اثنان في اسم، ويمتنع اشتراك اثنين في جميع الأوصاف، لكن من أمد غير بعيد قد شرعوا في تحريف بعض الصفات؛ ليبعد صدقها

(١) أعلام النبوة (ج١/ ص١٧١).

على النبي -عليه الصلاة والسلام-، فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها في بعض المواضع اختلافاً لا يخفى على اللبيب أمره، ولا ما قصد به، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم لانتشار النسخ بالطبع، وتيسر المقابلة بينها[1].

وفي قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] هذا هو الوصف الخامس، وهو القيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي وظيفة الرسل وخاتمهم نبينا ﷺ، بل هي أول وظيفة ذكرت هنا، وأول وصف وصفه الله به في الكتب السابقة: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف].

فكفى بهذه الشعيرة رتبة أنها صفة، بل مهمة أفضل خلق الله ألا وهم الأنبياء والمرسلون، قال الله في وصف إمامهم محمد: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ﴾[١٥٧ سورة الأعراف]، وقال الله في شأن نبيه إسماعيل -عليه السلام-: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾[مريم: ٥٥] وما من نبي إلا قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَّ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٥٩ سورة الأعراف].

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] هذه الآية دلت بمنطوقها على تحريم كل خبيث، وتحليل كل طيب.

والطيبات هي الأمور المستحسنة في ذاتها، من أطعمة طيبة مريئة، هنيئة، لا تفسد الأجسام، ولا تضر العقول، ولباس حسن من غير

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) بتصرف.

إسراف ولا مخيلة؛ وذات طيبة في حدود الخلق والمروءة، وتصرفات طيبة لا اعتداء فيها، ولا نكث وخيانة، وغير ذلك مما هو طيب في ذاته، وحصل عليه بطريق طيب أحله الله تعالى، ولا اعتداء فيه ولا اغتصاب.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] وهي الأشياء الخبيثة في ذاتها التي تضر الأجسام، كالخنزير والميتة والدم المسفوح، أو تضر العقول كالخمر، أو تلقى بالعداوة بين الناس كالميسر والبغضاء، أو الاعتداء على حق غيره بالسرقة والاغتصاب أو القتل، فكل هذه خبائث تدخل في باب الفحشاء والمنكر والبغي، وكذلك أكل أموال الناس بالباطل كالربا ونحوه[١].

وقيل: الطيبات هي المستلذات[٢] وهو ضعيف؛ لأن اللذاذة وحدها لا تصلح علة للتحليل أو التحريم، لكن تُعُقِّب هذا المعنى من قبل بعض المفسرين[٣] بأنه لا فائدة في أن يقال: يحل لهم المحللات، ويحرم عليهم المحرمات، والجواب: أن فائدته بيان أن الحل والحرمة بحكم الشرع لا بالعقل والرأي[٤].

لكن لا يفهم من هذا أن الشرع في تحليله وتحريمه يتناقض مع العقل، بل إن ما أباحه الشرع هو مستحسن في حكم العقل أيضاً، وما حرمه هو مستقبح فيه، فيكون قد وافق حكمُ العقل ما حكم به الشرع؛ لأنه معلوم أنه لا تناقض مطلقاً بين قطعي كل من العقل والنقل، وعلى هذا

(١) انظر: زهرة التفاسير (١/ ٢٩٧٢).
(٢) فتح القدير (٢/ ٣٦٠).
(٣) ينظر: الفخر الرازي (١٥/ ٢٧)، وتفسير المنار.
(٤) تفسير الآلوسي (٩/ ٨١).

فلا تعارض بين أن تكون هذه المحللات طيبة في حكم العقل قبل إقرار الشرع لها، والمحرمات خبيثة في حكم العقل قبل ورود الشرع بتحريمها.

وهذه المسألة قد جلاها ابن القيم ووضحها أيما توضيح، حيث قال تعليقاً على قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف]: فهذا صريح في أن الحلال كان طيباً قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثاً قبل تحريمه، ولم يستفد طيب هذا وخبث هذا من نفس التحليل والتحريم لوجهين اثنين:

أحدهما: أن هذا علم من أعلام نبوته التي احتج الله بها على أهل الكتاب، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبائث وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ} [١٥٧ سورة الأعراف] فلو كان الطيب والخبيث إنما استفيد من التحريم والتحليل لم يكن في ذلك دليل، فإنه بمنزلة أن يقال: يحل لهم ما يحل، ويحرم عليهم ما يحرم، وهذا أيضاً باطل فإنه لا فائدة فيه، وهو الوجه الثاني، فثبت أنه أحل ما هو طيب في نفسه قبل الحل، فكساه بإحلاله طيباً آخر، فصار منشأ طيبه من الوجهين معاً.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار الشريعة، ويشرفك على محاسنها وكمالها وبهجتها وجلالها، وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به، وأن الله تعالى منزه عن ذلك، كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به[1].

(١) التفسير القيم (ص ٢٧٩) جمعه محمد أويس الندوي، والأصل في كتاب مفتاح

وقيل في معناه: يحلّ لهم ما حرّم عليهم من الأشياء التي حرّمت عليهم بسبب ذنوبهم[١].

وفي قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] دلالة على أن التحريم إنما يكون لله ورسوله، قال الشافعي -رحمه الله-: أصل التحريم نص كتاب أو سنة، أو جملة كتاب أو سنة أو إجماع، قال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] وقال -عز وجل-: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾[٤ سورة المائدة]... الآية[٢].

وفي قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة، وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب.

والمقابلة إما لواحد بواحد؛ وذلك قليل جداً كقوله: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾[٢٥٥ سورة البقرة].

أو اثنين باثنين؛ كقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾[٨٢ سورة التوبة].

أو ثلاثة بثلاثة كقوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ

دار السعادة لابن القيم (٢/ ٦، ٧).

(١) فتح القدير (٢/ ٣٦٠).

(٢) تفسير الإمام الشافعي (٢/ ٨٥٤).

لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[١٥٢ سورة البقرة].

وأربعة بأربعة، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [٥ سورة الليل]... الآيتين.

وخمسة بخمسة، كقوله: ﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً﴾[٢٦ سورة البقرة]... الآيات، قابل بين ﴿بعوضة فما فوقه﴾وبين ﴿فأما الذين آمنوا﴾و﴿وأما الذين كفروا﴾وبين يضل ﴿ويهدي﴾وبين ﴿ينقضون﴾﴿وميثاقه﴾وبين ﴿يقطعون﴾و﴿أن يوصل}.

أو ستة بستة؛ كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾[١٤ سورة آل عمران]... الآية، ثم قال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ﴾[١٥ سورة آل عمران]... الآية، قابل ﴿الجنات﴾والأنهار والخلد والأزواج والتطهير والرضوان بإزاء النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث.

وقسم بعضهم المقابلة إلى ثلاثة أنواع: نظيري، ونقيضي، وخلافي.

مثال الأول: مقابلة السنة بالنوم في الآية الأولى، فإنهما جميعاً من باب الرقاد المقابل باليقظة في آية: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[١٨سورة الكهف] وهذا مثال الثاني: فإنهما نقيضان، ومثال الثالث: مقابلة الشر بالرشد في قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[١٠ سورة الجن] فإنهما خلافان لا نقيضان، فإن نقيض الشر الخير، والرشد الغي.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [١٥٧ سورة الأعراف] الإصر: العهد الثقيل، والتكاليف الثقيلة التي

تخرج مشقتها عن المعتاد، أي: ما عهد عليهم من عهد ثقيل، فلم تكن تكليفاتهم يسيرة، بل كان فيها شدة، وكان فيهم غلظة في طباعهم، وقسوة في نفوسهم، فكان تشديد التكليف عليهم تهذيباً لهم، وكفاً لشره في نفوسهم، فكان لابد من فطمهم عن بعض الطيبات، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهّ كَثِيرًا﴾[١٦٠ سورة النساء] أي: هي في أصلها حلال، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[١٤٦سورة الأنعام].

فكان فيما سبق من الشرائع تكاليف كثيرة فيها مشاق عظيمة، فخفف تلك المشاق لمحمد ﷺ، ومن هذه المشاق:

- في البول، كان إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه، فخفف الله ذلك عن هذه الأمة بالغسل بالماء، روى مسلم عن أبي وائل، قال: كان أبو موسى يشدد في البول، ويبول في قارورة، ويقول: إن بني إسرائيل كان إذا أصاب جلد أحدهم بول قرضه بالمقاريض، فقال حذيفة: لوددت أن صاحبكم لا يشدد هذا التشديد، لقد رأيتني أنا ورسول الله نتماشى، فأتى سباطة خلف حائط، فقام كما يقوم أحدكم; فبال: فانتبذت منه، فأشار إلي، فجئت، فقمت عند عقبه حتى فرغ[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب البول عند صاحبه، والتستر بالحائط (١/ ٥٥- ٢٢٥) ومسلم في كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين (١/ ٢٢٨- ٧٤) (٢٧٣).

- ومن الإصر الذي وضع إحلال الغنائم; وكانت حراماً على سائر الأمم.

- ومنها: ألا تجالس الحائض ولا تؤاكل، فخفف الله ذلك، قال ﷺ: (لتشد عليها إزارها، ثم شأنه بأعلاها)[١] في أعداد لأمثالها[٢].

والأغلال: جمع غل، وهو ما يوضع في العنق في مخنقة ليثقل، ويوضع كذلك تقييداً لحركته، وإثقالاً عليه، والمراد هنا ما وضع من قيود في الحلال عليهم تهذيباً، كتحريم الصيد يوم السبت، ومنع بعض المحللات في ذاتها؛ ولكنها حرمت عليهم تربية لهم.

فتكون الأغلال مجازاً عن هذه القيود التي شدد الله بها على نفوسهم لقمعها عن الإسراف في الشهوات، شُبهت هذه القيود بالأغلال الحسية؛ لأنها ثقيلة على النفوس المستقيمة؛ ولكنها علاج للنفوس المريضة السقيمة، وإن شريعة النبي الأمي جاءت موائمة للفطرة السليمة، جاءت لليسر دون العسر، وكانت عزاء للإنسانية كلها لا فرق بين أحمر وأسود، وهى الباقية ما بقى الإنسان.

قال ابن جرير في معنى الأغلال بعد أن ذكر عدة أقوال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الإصر هو العهد... وأن معنى الكلام: ويضع النبيُّ الأميُّ العهدَ الذي كان الله أخذه على بني إسرائيل من إقامة التوراة، والعملِ بما فيها من الأعمال الشديدة، كقطع الجلد من البول، وتحريم الغنائم، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٤٨٨).
(٢) أحكام القرآن لابن العربي (ج٤/ ص٢٥).

مفروضةً، فنسخها حُكْم القرآن[١].

فتكون إذن الأغلال غير الإصر؛ فهي مستعارة للعبودية التي كانوا عليها في الجاهلية، وهي عبودية الأصنام وسدنتها، وعبودية الملوك، وعبودية القادة أصحاب المرابيع[٢]. ومما يزيد هذا بياناً قول عمر لعمرو بن العاص في قصة ولده: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»[٣]. استعار الإصر والأغلال للأحكام والتكاليف الشاقة من باب الاستعارة المكنية.

ومن هذه (الأغلال التي كانت عليهم) والقيود التي وجب عليهم التزامها -كما ذكر ابن الجوزي- أنه كان عليهم أن لا يُقبَل منهم في القتل دية، وأن لا يعملوا في السبت، وأن يَقْرِضُوا ما أصاب جلودهم من البول[٤] وقد نسب ابن عطية القول بهذا إلى جمهور المفسرين[٥].

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، يتضمن الكلام المتقدم فحواه، ومؤدى القول: إذا كان هذا النبي الأمي ينعم الله على يده عليكم تلك النعم، وهو قد جاء بالحق في ذاته، ورفع عنكم الآصار والأغلال فعزروه، أي: فوقروه وأيدوه[٦]. أي: امنعوه من أعدائه أن ينالوه بسوء،

(١) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٨).
(٢) المرابيع: جمع مرباع، وهو ربع الغنيمة كان يأخذه سيد القبيلة حين يُغير بها.
(٣) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (ج١٢/ ص٦٦٠- ٣٦٠١٠).
(٤) زاد المسير (٣/ ٢٧٤).
(٥) تفسير ابن عطية(٢/ ٤٦٤).
(٦) زهرة التفاسير (١/ ٢٩٧٣).

وأصلُه المنعُ، ومنه التعزير»[١]. وسمي التعزير بذلك لأنه يمنع من معاودة القبيح واستمرائه.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] أي: أنزل من عند الله تعالى، ومصاحباً لدعوته، ومؤيداً لرسالته، وهو المعجزة الكبرى الخالدة وهو القرآن، والتعبير عنه بالنور فيه استعارة، فقد شبه بالنور؛ لأنه مبين للحقائق، مزيل للجهالات، دافع للأوهام، كما أن النور يزيل غياهب الظلام، واتباع القرآن اتباع لصراط الله المستقيم الذي لا عوج فيه، وهو الخلاصة الإلهية للرسالة الإلهية، وهو سجل النبوات جميعاً، فيه أحكامها، وأخبارها، ومعجزاتها[٢].

ولا يقال: القرآن أنزل مع جبريل فما معنى: ﴿أُنزِلَ مَعَهُ}؟

والجواب: أن المراد أنزل مع نبوته؛ لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن، مشفوعاً به، ويجوز أن يعلق بـ(اتبعوا)، أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي، والعمل بسنته، وبما أمر ونهى عنه، فيكون أمراً بالعلم بالكتاب والسنة، أو هو حال، أي: اتبعوا القرآن كما اتبعه، مصاحبين له في اتباعه.

وفي التعبير عن القرآن بالنور المنبئ عن كونه ظاهراً بنفسه لإعجازه، ومظهراً لغيره من الأحكام لمناسبة الاتباع، قال صاحب «الكشاف»: فإن قلت: ما معنى قوله: (أنزل معه) وإنما أنزل مع جبريل؟ قلت: أنزل مع نبوته؛ لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن، مشفوعاً به، انتهى[٣].

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٨٠)
(٢) زهرة التفاسير (١/ ٢٩٧٤).
(٣) الكشاف (ج٢/ ص٢٩٧).

فيكون (معه) متعلق بـ(أنزل) حال من ضميره، بتقدير المضاف، أي: أنزل ذلك النور مصاحباً لنبوته، وعبر عنه بالنور، لكونه يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات[١].

وكذا قال الفخر الرازي: فإن قيل: كيف يمكن حمل النور ها هنا على القرآن والقرآن ما أنزل مع محمد، وإنما أنزل مع جبريل؟ قلنا: معناه إنه أنزل مع نبوته؛ لأن نبوته ظهرت مع ظهور القرآن[٢].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] أي: المنعوتون بتلك النعوت الجلية، وقد أشار -سبحانه وتعالى- بالبعيد للدلالة على بعد الشرف، وعلو المنزلة.

﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف] أي: الفائزون بالمطلوب، الناجون من المكروب، لا غيرهم من الأمم، وقد قصر الله تعالى الفلاح عليهم بتعريف الطرفين، وبضمير الفصل، أي: أنهم المفلحون، ولا يفلح سواهم، والقصر قصر حقيقي، إذ إنهم سلكوا الصراط المستقيم، ومن لم يسلك سبيل الله فقد سلك مسارات الشيطان، وهذا فرق ما بين الهدى والضلال.

فحكم الله سبحانه وتعالى هنا على الذين قاموا بهذه الصافات بأنهم الفائزون في الدنيا باتباع الحق، وأن حياتهم كلها فاضلة، وأن تكون حياتهم في الآخرة نعيماً مقيماً، ورضواناً من الله العزيز الحكيم، وهو أكبر الفوز العظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٥٧ سورة الأعراف].

وإذا كان ذلك طريق الفوز عند الله، وفي الحياة الدنيا والآخرة

(١) تفسير السعدي (ج١/ ص٣٠٥).
(٢) تفسير الفخر الرازي (١٥/ ٢٨).

فإن الإنسانية كلها مخاطبة بها؛ ولذا قال تعالى آمراً نبيه بخطاب الناس كافة بهذه الشريعة السمحة البيضاء: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِّ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِّ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِّ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١٥٨ سورة الأعراف].

والإشارة إلى الصفات يفيد أنها علة الحكم وسببه، أي: بسبب هذه الصفات ينالون الفلاح في الدنيا والآخرة؛ لأن الهداية والاستقامة فلاح لا يدركه إلا من استقامت إلى الحق نفوسهم.

فخرج بهذه الآية من الإسلام ومن أسباب الفلاح اليهود والنصارى والبوذيون وجميع المشركين؛ لأنهم لم يتصفوا بهذه الأوصاف التي وصف الله بها المفلحين، بل كلهم عاداه ولم ينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، ولم يأمر ولم ينه، إلا من هداه الله منهم فهو مع المسلمين الناجين.

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١. فضيلة النبي ﷺ، وتميزه بفضائل الصفات التي يمكن أن يكون عليها الكمال البشري، حتى صفة الأمية التي قد تعتبر في الأصل صفة نقص إلا أنها في حقه ﷺ كمال وشرف، وهي أحد أدلة إلهية القرآن.

٢. وجوب تعظيم الرسول ﷺ، ونصره بالجهاد، ونصرته بنصرة دينه، وكل أمر يؤدي إلى توهين ما يتصل بذلك؛ لأن جميع ذلك من باب النصرة، وهذا لا يختص بعصره، فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف؛ ولعل الجهاد بالبيان، وإيراد الحجة، ووضع

الكتب فيه، وحل شبه المخالفين، يزيد في كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف[١].

وهو يؤكد على ضرورة الاحتساب في الدفاع عن هذا الدين، والتمكين له، ويبين أنه لا يقل بل يزيد أحياناً على الجهاد بالسيف.

٣. وفي الآية تعظيم وفضل أصحاب النبي ﷺ، قال صاحب التحرير والتنوير: في هذه الآية تنويه بعظيم فضل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم-، ويُلحق بهم من نصر دينه بعدهم[٢].

٤. وفيها: فضيلة الأمة المحمدية، ومكانتها عند ربها، حتى إنه وصفها بأفضل الصفات، وكتب لها الرحمة، بما تقوم به من تقوى الله، وإيتاء الزكاة، والإيمان بآيات الله، وغير ذلك مما أمرها الله به.

٥. وفيها: تيسير الله -عز وجل- على هذه الأمة ورحمته بها، ومن مظاهر ذلك:

أنه فيما شرعه لها من أحكام راعى جانب التيسير والبعد عن المشقة، وأنه سبحانه لم يكلفها ما لا تطيق، وأنه تعالى قد وضع عنها الإصر والأغلال التي كانت على بني إسرائيل من قبلها، فشقت عليهم الشرائع، فتخلوا عنها.

فجاء النبي ليضع عن أمة الإسلام الأحكام والتكاليف الشاقة التي يضعف عن حملها الإنسان، والتي كانت على بني إسرائيل من مثل: قتل النفس بالتوبة، وتحريم الغنائم، والله تعالى علّم المسلمين -كما في أواخر

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٢٨٨٢).
(٢) تفسير التحرير والتنوير (٩/ ١٣٩).

سورة البقرة- كيف يدعونه برفع الحرج عنهم، حين قال: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٨٦] وقد ورد في صحيح مسلم ما يدل على أن الله استجاب دعاءهم(١).

وقد قال -عز وجل-: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[طه: ١-٢] وقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾[الأعلى: ٨] قال ابن كثير في تفسيره: «أي: نسهّل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سمحاً مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه، ولا حرج ولا عسر»(٢).

٦. وفيها: فضيلة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن دلائل ذلك أنه صفة النبي محمد ﷺ، وسنة سائر المرسلين، فالقيام به هو قيام بما كان يقوم به المرسلون، وفيهم نبينا محمد ﷺ.

٧. وفيها: قيام الحجة على أهل الكتاب الذين عرفوا صفة النبي ﷺ الكائنة في كتابهم، فأنكروها وحرفوها، وأبوا الإيمان به، مع تيقنهم صدقه، لما عاينوه من صفاته، وما اطلعوا عليه من حاله.

٨. وفي قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١٥٧سورة الأعراف] قال الآلوسي: فُسِّر الأول بالأشياء التي يستطيبها الطبع كالشحوم، والثاني بالأشياء

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه) (ج١/ ص ٨١- ٣٤٥).
(٢) تفسير ابن كثير (ج٨/ ص٣٨٠).

التي يستخبثها كالدم، فتكون الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل، وفي كل ما تستخبثه النفس ويكرهه الطبع الحرمة إلا لدليل منفصل[١]. وهذا القول متفرع على مسألة هل الأصل في الأشياء الإباحة أو التحريم؟ وهي من المسائل التي اعتنى بها علم أصول الفقه.

قال الفخر الرازي: هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار أن لا تكون مشروعة؛ لأن كل ما كان ضرراً كان إصراً وغلاً، وظاهر هذا النص يقتضي عدم المشروعية، وهذا نظير لقوله -عليه الصلاة والسلام-: (لا ضرر ولا ضرار)[٢] ولقوله -عليه الصلاة والسلام-: (بعثت بالحنيفية السمحة)[٣] وهو أصل كبير في الشريعة[٤].

(١) روح المعني للآلوسي (٩/ ٨١).
(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأحكام، باب من بني في ما يضر بجاره (٢٣٤٠) وأحمد (٥/ ٣٢٦ - ٣٢٧) ومالك في الموطأ في كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق وبرقم (٣١) وصححه الألباني في إرواء الغليل (ج١/ ص٥٢٨- ٢٦٥٣).
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١١٦) رقم (٢٤٨٩٩) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٢٤).
(٤) تفسير الفخر الرازي (١٥/ ٢٨).

❁ الآية الثامنة:

القيام بهذه الشعيرة سبب للنجاة من الهلاك

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [١٦٥سورة الأعراف].

هذه الآية جاءت في سياق قصة أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر، والتي قال الله عنها: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١٦٣-١٦٤ سورة الأعراف].

ثم قال الله مخبراً عن مصيرهم: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[١٦٥سورة الأعراف].

وخلاصة هذه القصة ما ذكره المفسرون سلفاً وخلفاً أن الله أمر اليهود أن يكون عيدهم الجمعة من كل أسبوع على ما هو ثابت في شريعتنا، فأبوا إلا السبت، فأجيبوا إلى ما طلبوا، وأمروا أن يتفرغوا فيه للعبادة، وحرم الله عليهم صيد السمك فيه، ثم ابتلاهم الله سبحانه، فكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً، ظاهرة على وجه الماء، فإذا كان يوم الأحد اختفت، فلم يُر منهن شيء، حتى يكون يوم السبت الذي

بعده وهكذا، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾[١٦٣سورة الأعراف] وقد مكثوا مدة لا يصيدونها في ذلك اليوم، كما أمرهم الله، ثم اشتهتها أنفسهم، فاحتالوا للاصطياد في السبت بصورة الاصطياد في غيره بشتى الحيل التي ظاهرها الامتثال، وباطنها التمرد والعصيان، حتى إذا فشا فيهم ذلك المنكر علانية نصحهم أحبارهم ورهبانهم، وأبلغوا في النصح فلم يقبلوا منهم، فانقسم هؤلاء الناصحون إلى فرقتين:

فرقة كفت عن النهي لعلمها بحال القوم، ويأسها من هدايتهم، وفرقة استمرت على نهيهم وتذكيرهم حماسة في دين الله، وحرصاً على هداية المعتدين، حتى قالت لهم الطائفة التي نهت وكفت عن النهي: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾[١٦٤سورة الأعراف] وهو سؤال استفسار، فأجابت الطائفة التي استمرت على التذكير بما حكاه الله عنها: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١٦٤سورة الأعراف] ومع ذلك لم يجدهم التذكير نفعاً، واستمروا على الاعتداء ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾[١٦٥سورة الأعراف] وهم الطائفتان التي نصحت وكفت والتي نصحت ولم تكف عن النصح: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[١٦٥سورة الأعراف] وذلك العذاب البئيس هو مسخهم قردة.

فانظر -رحمك الله- إلى حيل اليهود وخداعهم، فهذا دال على أن الأعمال بمقاصدها وحقائقها دون صورها وظواهرها، ودال على أن كل حيلة يترتب عليها العبث بفرع من فروع الشريعة، فضلاً عن أصل من أصولها محرمة أشد التحريم، وأن صاحبها معرض لأن يعاقب بمثل هذه

العقوبة الشنيعة؛ ولهذا قال تعالى في قصتهم مهدداً كل من يأتي بعدهم، ويتبع آثارهم: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٦٦] أي: جعلنا هذه المسخة الشنيعة التي مسخناهم إياها عقوبة لما تقدمها من ذنوبهم التي واقعوها؛ ولما يأتي بعدها من أمثال ذنوبهم أن يعمل بها عامل فَيُمْسَخ كما مسخوا، وموعظة للمتقين إلى يوم القيامة؛ ولهذا حذر النبي ﷺ أمته من ارتكاب ما فعلته اليهود من استحلال محارم الله بالحيل.

والمتأمل في قصة أهل هذه القرية يجد أن أهلها انقسموا ثلاثة أقسام: عصاة، وصالحون، ومصلحون، وتأمل الآيات كيف قام المصلحون بالدعوة، فأنكر عليهم الصالحون! وقالوا: لا فائدة من إنكاركم، ولا من إصلاحكم، فهؤلاء قوم فاسدون لا خير فيهم، فكانت النتيجة أن نجى الله المصلحين، وأهلك الفاسقين، وسكت عن الذين لم يقوموا بالإصلاح.

واختلف العلماء هل أهلكوا أم لا؟ على قولين:

فقيل: أهلكهم مع المعتدين، وقيل: نجاهم، ولكنه أغفل ذكرهم احتقاراً لهم، وكفاهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

والظاهر: أنهم كانوا من الناجين؛ لأن الله خص الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت؛ ولأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاكتفوا بإنكار أولئك؛ ولهذا أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[١٦٤ سورة الأعراف].

وعن عكرمة قال: قال ابن عباس: نسمع الله يقول: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾[١٦٥سورة الأعراف] فلا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة؟ قال عكرمة: قلت له: جعلني الله فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه؟ وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ﴾[١٦٤سورة الأعراف] وإن لم يقل الله: أنجيتهم لم يقل: أهلكتهم، فأعجبه قولي فرضي، وأمر لي ببردين فكسانيهما، وقال: نجت الفرقة الساكتة[١].

إلا أن جماعة من العلماء يرون أن الواجب السكوت عنهم، كما سكت عنهم القرآن، ومنهم الشيخ ابن عثيمين حيث قال -رحمه الله-: «فاختلف العلماء: هل الطائفة الساكتة أُخذت بالعذاب أم أنها نجت؟ والذي ينبغي أن نسكت كما سكت الله، ويسعنا ما في كتاب الله -عز وجل-»[٢].

فعلى هذا أو ذاك، فالله هو الذي يعلم بسرائر الساكتين عن مناصرة الحق، ومقاومة الباطل، هل هي سلبية وخور وقهر مع رفض باطني للعوج السائد؟ أم هي قلة اكتراث، وسوء تقدير للعواقب؟ ليكن هذا أو ذاك، فإن ترك الضلال ينفرد بزمام الحياة ينتهي حتماً بضربة من العذاب لا تبقى ولا تذر ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[١١٧ سورة هود].

ولنتدبر الجملة الأخيرة في الآية وهي قوله: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ولم

(١) مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل (ج٣/ ص٢١١).
(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤١٨).

يقل: وأهلها صالحون؛ لأن الصلاح الشخصي المنزوي بعيداً، والذي لا يكترث لضعف الإيمان، ولا يبالى بهزيمة الخير، صلاح لا قيمة له، ولا خير فيه! فكن صالحاً مصلحاً، وراشداً مرشداً، أما أن تجلس بعيداً تنتظر النتائج، وتستسلم للواقع فلا![1].

ولهذا يقول سيد قطب -رحمه الله- وهو يصور حال هذه القرية: "لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرة البحر من بني إسرائيل، فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء، فتتهاوى عزائمهم، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم، فيحتالون الحيل على طريقة اليهود للصيد في يوم السبت! وما أكثر الحيل عندما يلتوي القلب، وتقل التقوى، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص، ويراد التفلت من ظاهر النصوص، إن القانون لا تحرسه نصوصه، ولا يحميه حراسه، إنما تحرسه القلوب التقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته، فتحرس هي القانون وتحميه، وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه! ما من قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية! ولن تستطيع الدولة كائناً ما كان الإرهاب فيها أن تضع على رأس كل فرد حارساً يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته؛ ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس، ومراقبتهم له في السر والعلن، من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية، وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر، ولا سلطان فيها من الله، ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التي تقيمها الدول لحراسة القوانين وتنفيذها، وتعجز الملاحقة والمراقبة

(١) انظر: المحاور الخمسة للقرآن الكريم (١/ ٦٢) بتصرف.

التي تتابع الأمور من سطوحها!

وهكذا راح فريق من سكان القرية التي كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت، الذي حرم عليهم الصيد فيه، وروي أنهم كانوا يقيمون الحواجيز على السمك، ويحوّطون عليه في يوم السبت؛ حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه؛ وقالوا: إنهم لم يصطادوه في السبت، فقد كان في الماء وراء الحواجيز غير مصيد!

وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتيال على الله! فيحذر الفريق العاصي مغبة احتياله! وينكر عليه ما يزاوله من الاحتيال! بينما مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه؟ وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب؟ ﴿وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[١٦٤سورة الأعراف][1].

ولنعد لبيان وتفسير ألفاظ هذه القصة:

قوله: ﴿واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾[١٦٣سورة الأعراف] واسألهم: يعني أسباط اليهود، وهذا سؤال تقرير وتوبيخ! يقررهم على قديم كفرهم، ومخالفة أسلافهم الأنبياء، ويخبرهم بما لا يعلم إلا بوحي.

﴿عن القرية﴾أي: عن أهلها الذين خالفوا أمر الله تعالى، ففاجأتهم نقمته. وفي القرية خمسة أقوال:

أحدها: أنها أيلة، رواه مرة عن ابن مسعود وأبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والسدي.

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٣٠٨).

والثاني: أنها مدين، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثالث: أنها ساحل مدين، روي عن قتادة.

والرابع: أنها طبرية، قاله الزهري.

والخامس: أنها قرية يقال لها: مقنا، بين مدين وعينونا، قاله ابن زيد[١].

وقوله: ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾[١٦٣سورة الأعراف] أي: مجاورة البحر، وبقربه وعلى شاطئه[٢] وهي أيلة على ساحل البحر الأحمر، على طريق الحاج الذاهب من مصر إلى مكة.

يقال: حضره إذا قاربه وداناه، فمعنى حاضرة البحر مشرفة عليه، دانية منه على سيفه[٣].

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾[١٦٣سورة الأعراف] قال الزجاج: أي: يظلمون، يقال: عدا فلان يعدو عدواناً وعداء وعدواً وعدواً إذا ظلم، وموضع (إذ) النصب، والمعنى: سلهم عن وقت عدوهم في السبت[٤].

وأصل السبت: الراحة والسكون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[النبأ: ٩] أي: راحة وسكوناً لكم، وكان يوم السبت يوم راحة لليهود، وتوقف عن الأعمال، فاعْتَدَوْا فيه كما ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف، فحلت عليهم اللعنة لاعتدائهم في السبت بعد أن نهاهم الله تعالى عن الاعتداء فيه بقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ

(١) زاد المسير (٣/ ٢٧٦).
(٢) زاد المسير (٣/ ٢٧٦).
(٣) زهرة التفاسير (١/ ٢٩٨٦).
(٤) زاد المسير (٣/ ٢٧٦).

وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:١٥٤-١٥٥].

فيكون معنى (يعدون) أي: يعتدون ويخالفون أمر الله تعالى باصطيادهم يوم السبت، وقد حرم عليهم ذلك.

فإن قال قائل: لماذا نهاهم الله سبحانه وتعالى عن الاعتداء في السبت؟

فالإجابة: أن الله -عز وجل- يكلف بما يشاء من التكاليف اختباراً للعباد، وأحياناً يختبرهم ويبتليهم لفسقهم، كما قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[١٦٣سورة الأعراف] فرب العزة سبحانه وتعالى يبتليهم لفسقهم، ويكلفهم بتكاليف ابتلاء لهم، قال الله لهم: ﴿لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾[النساء: ١٥٤] أي: لا تعتدوا ولا تقربوا الأعمال يوم السبت، فأقروا بذلك، فأراد الله أن يبتليهم بفسقهم، فأرسل إليهم الحيتان يوم السبت شرعاً، أي: ظاهرة على وجه الماء، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[١٦٣سورة الأعراف] فاعتدت طائفة منهم.

وقوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾[١٦٣سورة الأعراف] (إذ) في موضع نصب بـ(يعدون)، والمعنى: سلهم إذ عدوا [1].

و﴿سبتهم﴾فيه إضافة اسم اليوم إليهم؛ لأنه اليوم الذي فرض عليهم ألا يقوموا بالصيد فيه.

وقوله: ﴿شرعاً﴾أي: ظاهرة على الماء من كل مكان، أي: شارعة معلنة اختباراً لهم.

(١) زاد المسير (٣/ ٢٧٦).

فشرعاً: جمع شارع، من شرع بمعنى دنا، يقال: شرع علينا فلان إذا دنا منا، وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا، وهو حال من: ﴿حِيتَانُهُمْ﴾أي: تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء، قريبة من الساحل، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم أصلاً إلى السبت المقبل.

وقال الضحاك: شرعاً: متتابعة، وفي القصة: أنها كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش السمان البيض[١].

وقد اختبرهم الله تعالى ليكشف حالهم ويهذبهم بأمرين:

بتحريم الصيد يوم السبت ليفطموا شهواتهم، ويقرعوا نفوسهم الشرهة، والمسلطة عليهم.

وثانياً: بأن تأتيهم حيتان السمك شرعاً، لتثور شهوتهم ويقمعوها إن كانت فيهم إرادة، فإن لم تكن ربوها وهذبوها، وقدعوها عن شهواتها استجابة لأمر ربهم، فالنفس الشرهة التي تسيطر عليها الشهوة لا بد من فطمها.

وأمر ثالث وهو: أن الله تعالى ذكر أنهم كانوا يعدون في السبت، فمنهم من كان يتناول المحرم في السبت غير متأثم ولا متحرج، ومنهم من يحتال، حيث قيل: إنه كان يحفر حفرة بجوار البحر، ويعمقها، فإذا جاءت حيتان السمك شرعاً يوم السبت نزلت في هذه الحفر، فإذا جفت بعد قطع الماء عنها لا تستطيع الخروج، فيأخذونها بأيديهم، وتلك حيلة تفوت معنى تقوية النفوس وتربيتها، وهم بذلك يعدون يوم السبت؛

(١) تفسير البغوي - (ج ٣ / ص ٢٩٣).

لأنهم يخرجون بذلك عن الابتلاء الذي يكشف الله به نفوسهم[١].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ﴾[١٦٣سورة الأعراف] أي: لا يدخلون في السبت الذي يمنعون فيه من الصيد، والمعنى: أن السمك تأتي يوم السبت، ويوم لا يسبِتون لا تأتيهم.

وقرأ الحسن: (لا يُسبتون) بضم الياء، أي: لا يدخلون في السبت، والقراءة المعروفة بنصب الياء، ومعناه: لا يعظمون السبت[٢].

قوله: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[١٦٣سورة الأعراف] أي: كهذا الذي صنعناه معهم من تحريم السبت، ومجيء الحيتان فيه نعاملهم معاملة المبتلى المختبر؛ لتهذب نفوسهم، وتربى إرادتهم، وذلك بسبب استمرارهم على الفسوق، وانحراف النفوس، وخضوعها لشهواتها؛ ولأجل تعويدهم ضبط النفس، والصبر على الحرمان، فإن الصبر نصف الإيمان، فالله تعالى وصاهم، ودعاهم إلى الهدى، وشرع لهم ما يصقل نفوسهم ويهدي قلوبهم، ولكن كتبت عليهم الشقوة فلم يهتدوا[٣].

وقوله: ﴿وَإِذ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾[١٦٤سورة الأعراف] (إذ) ظرف زمان ماضٍ، والمعنى: اذكر يا محمد ذلك الوقت الذي هم فيه بلغ اليأس من اهتدى منهم حتى قالت منهم جماعة مهدية يائسة من إيمانهم، منكرة وعظ من يعظهم.

---

(١) انظر: زهرة التفاسير (ص ٧٧١) بتصرف

(٢) تفسير البغوي - إحياء التراث (٢/ ٢٤٢).

(٣) زهرة التفاسير (١/ ٢٩٨٧).

والأمة: هي الجماعة المؤتلفة التي تجمعها فكرة واحدة، وشعور متحد، بحيث يوائم كل واحد فيها من معه.

وقوله: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾[١٦٤سورة الأعراف] الوعظ: بيان الحق مقارناً بمغبة الباطل، ذاكراً ما ترتب على الباطل من أذى لأهله، وهلاك لمن استمسكوا بالباطل، وتركوا الحق، وانحرفوا عنه، والعاقل من اتعظ، والجاهل من يأبى ولا يتعظ.

﴿قوماً﴾ قد تضافروا على الشر، وتقرر هلاكهم وهم على ضلالهم(٤).

﴿اللهُ مُهْلِكُهُمْ﴾[١٦٤سورة الأعراف] أي: مستأصلهم، ومطهر الأرض منهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[١٦٤سورة الأعراف] يعني: دون الاستئصال بالمرة؛ إذ مجرد الإهلاك قد يوجد معه لطف، وأما شدة العذاب فتلك القاصمة، وقيل: مهلكهم في الدنيا، أو معذبهم في الآخرة؛ لعدم إقلاعهم عما هم عليه من الفسق، والترديد لمنع الخلو على هذا، وإيثار صيغة اسم الفاعل في الشقين للدلالة على تحقيق كل من الإهلاك والتعذيب وتقررهما ألبتة، كأنهما واقعان.

وإنما قالوا ذلك مبالغة في أن الوعظ لا ينجع فيهم؛ إذ المقصود لاتعظوا أو أتعظون، فعدل عنه إلى السؤال عن السبب لاستغرابه؛ لأن الأمر العجيب لا يدرى سببه، أو سؤالاً عن حكمة الوعظ ونفعه.

وقيل: إن هذا تقاوُل وقع بين الصلحاء الواعظين؛ كأنه قال بعضهم لبعض: لم نشتغل بما لا يفيد، ويحتمل على كلا القولين أن ذلك صدر من القائل بمحضر من القوم، فيكون متضمناً لحثهم على الاتعاظ، فإن بت

(٤) زهرة التفاسير (١/ ٢٩٨٧).

القول بهلاكهم أو عذابهم مما يلقى في قلوبهم الخوف والخشية، وقيل: قائلو ذلك المعتدون في السبت، قالوا: تهكما بالناصحين المخوفين لهم بالهلاك والعذاب، وفيه بعد[١].

قوله: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾[١٦٤سورة الأعراف] أي: يجب علينا أن نعظ لنعتذر إلى ربنا، بأننا قمنا بحق بيان الهدى والنور؛ وليكون استحقاقهم الهلاك على الضلال بعد بينة أقيمت، وحق أعلن، ونقدم هذه المعذرة إلى ربنا عن ضلالهم، وهذا كله على أساس أن المستفهمين مهديون، وهو الأنسب لمعنى الآية، وفرض بعضهم أن المستفهمين هم الذين وقعوا في الضلالة، وكأنهم يقولون: إنكم تحسبون أننا هالكون ومعذبون، ونحن مصرون، فاتركونا بضلالنا، حتى نلقى جزاءنا بزعمكم، ويكون الاستفهام لإنكار الواقع، وتوبيخ الواعظين على وعظهم، وذلك تحتمله الآية الكريمة، ولكنا نميل إلى الأول[٢].

وقوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١٦٤سورة الأعراف] عطف على معذرة، أي: ورجاء لأن يتقوا بعض التقاة، ويتركوا المعصية؛ لأن قبول الحق الواضح يرجى من العاقل، واليأس لا يحصل إلا بالهلاك، وهذا صريح في أن القائلين: لم تعظون... الخ، ليسوا من الفرقة الهالكة، وإلا لوجب الخطاب أي: ولعلكم[٣].

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾[١٦٥سورة الأعراف] أي: فلما تركوا

(١) روح المعاني (٩/ ٩١).
(٢) زهرة التفاسير (١/ ٢٩٨٧).
(٣) تفسير روح البيان (٣/ ٢٠٢).

ما ذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء، وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً، بحيث لم يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ أصلاً عبّر عنه بالنسيان، وإلا فإنهم تركوه عن قصد، وهذا يدل على أن النسيان لفظ يطلق على الساهي والعامد، رداً على أهل جهالة زعموا أن الناسي والساهي لمعنى واحد، وهؤلاء قوم لا معرفة لهم باللغة، وقصدهم هدم الشريعة، وقد بينا ذلك في غير موضع[1] كذا قال ابن العربي.

وقوله هنا: ﴿أَنجَيْنَا﴾وفي بعض الآيات (نجينا) بدون همزة، والفرق بينهما:

- أنه إذا استعمل لفظ (نجينا) فاعلم أنها تنجية من عذاب وقهر واقعَين، وإن بني إسرائيل كانوا في عذاب واقع من تذبيح وتجويع وقهر تحت حكم فرعون، وكذلك في نوح وقومه، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين في المشقة مع قومه، استعملت في حقه ومن آمن معه (نجينا) وكذلكم الأمر في هود.

- أما إذا استعمل لفظ: (أنجينا) فاعلم أنه إنجاء قبل وقوع أي مكروه أو عذاب، فاستعمل الله سبحانه أنجينا في الحديث عن إنجائه لموسى وبني إسرائيل قبل أن يدركهم فرعون في البحر، وأنجى نوحاً من الطوفان بوسيلة الفُلك، وأنجى لوطاً وهوداً قبل أن يحل بأقوامهم العذاب والانتقام، كذا قيل، والله أعلم.

فالإنجاء: قبل وقوع العذاب أو المكروه، والتنجية: من العذاب والمكروه الواقع، فإننا ننْجي الرجل من الضرب قبل وقعه من أعدائه،

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٤٩٢).

وإننا ننَجّي الرجل من الضرب وهو واقع به، فنخلصه من أعدائه أثناء اعتدائهم عليه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾[١٦٥سورة الأعراف] هكذا سنة الله في عباده أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر.

أما الساكت عن الإنكار فقد قال شيخ الإسلام: "فأنجى الله الناهين، وأما أولئك الكارهون للذنب الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾[١٦٤سورة الأعراف] فالأكثرون على أنهم نجوا؛ لأنهم كانوا كارهين، فأنكروا بحسب قدرتهم، وأما من ترك الإنكار مطلقًا فهو ظالم يعذب، كما قال النبي ﷺ: (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[١] وهذا الحديث موافق للآية[٢].

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾[١٦٥سورة الأعراف] أي: شديد وزناً ومعنى، والمقصود أصحاب السبت، وهي عامة في كل من فعل مثل فعلهم، فأخذهم الله -عز وجل- فمسخهم قردة، وبعض العلماء يقول: مسخ كبارهم خنازير، وشبابهم قردة نسأل الله العافية والسلامة.

و(بئيس): مشتق من البأس، وهو الشدة والقوة، فالعذاب البئيس هو العذاب الشديد العنيف في ذاته الذي يلقى بالبؤس في ذاته، وفُسر

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) والبزار (٦٥)، وأبو يعلى (١٣٢)، وابن حبان (٣٠٤) وابن أبي شيبة (١٥ / ١٧٤ - ١٧٥)، وابن ماجه (٤٠٠٥). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٤٠٠٥).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) (٥ / ٣٧٩).

بما لا رحمة فيه، ويرجع إلى ما ذكر، وهو فعيل، إما وصف أو مصدر، كالنكير وصف به مبالغة، والأكثرون على كونه وصفاً من بؤس يبؤس بأساً إذا اشتد.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[١٦٥سورة الأعراف] أي: بفعل المنكر، أي: بسبب استمرارهم على الفسق الذي كان يتجدد ويستمر، والفسق الخروج عن الحق، وقد وصفهم الله تعالى بوصفين:

وهما: الفسق والظلم، والفسق هو الانحراف والخروج من نور الحق، والظلم: ما ترتب على ذلك من إيذاء أنفسهم وإيذاء غيرهم.

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١. أن الله -سبحانه وتعالى- جعل القيام بهذه الشعيرة سبباً للنجاة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[١٦٥سورة الأعراف] فهذه الآية قد ذكرت ثلاثة أقسام: قسم فعل المنكر، وقسم أنكر، والفئة الثالثة: الذين سكتوا.

فلما لم يستجب العاصون أخذهم الله بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، فنص الله على نجاة الناجين بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾[١٦٥سورة الأعراف] وسكت عن الساكتين، فقال ابن عباس: «سُكت عنهم».

٢. وفي هذه الآية دلالة على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من أعظم أسباب دفع العقوبات عن الأمة، كيف لا يكون كذلك

وهو سبب رفعتها وخيريتها، فإذا ادلهمت الخطوب، وخيف من نزول العقوبات الربانية، فإن من أعظم أسباب رفع العقوبات والنجاة وقتها هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قال -جل وعلا-: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[١٦٥سورة الأعراف].

وقد جعل الله النجاة في الدنيا والآخرة لمن نهى عن الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[١١٦ سورة هود].

ولا يزال المسلم اليوم -ولله الحمد- يجد له على الخير أعواناً، فليسع كل واحد منا إلى إصلاح نفسه وأهله؛ وليذكر الآخرين بدينهم بقدر وسعه، وسيجعل الله من ذلك خيراً بإذنه تعالى.

❁ الآية التاسعة:

من صفات المنافقين أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف

قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٦٧ سورة التوبة].

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية أنواعاً وضروباً من قبائح المنافقين ذكرانهم وإناثهم، وقرنها بالوعيد الشديد، بما أعد لهم من الجزاء في زمرة إخوانهم الكفرة الذين من قبلهم على ما كانوا يقترفون من الفساد والإفساد، ومن صفاتهم أنهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف.

فقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[٦٧ سورة التوبة] أي: ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾من الرِّجَال ﴿والمنافقات﴾من النِّسَاء ﴿بعضهم من بعض﴾أي: متشابهون فيه وصفاً وعملاً، كما تقول: أنت مني وأنا منك، أي: أمرنا واحد، لا افتراق بيننا، والمعنى: أن أهل النفاق رجالاً ونساء يتشابهون في صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم، كما قال تعالى في آل إبراهيم وآل عمران: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾[٣٤ سورة آل عمران] وكما قال الشاعر:

تلك العصا من هذه العصيّه هل تلــد الحيّـة إلا حيّه

وقد يراد من ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾نفى أن يكونوا من المؤمنين؛ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

قال الرازي: «اعلم أن هذا شرح لنوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم، والمقصود بيان أن إناثهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة، والأفعال الخبيثة، فقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾[٦٧ سورة التوبة] أي: في صفة النفاق، وذلك كما يقول إنسان لآخر: أنت مني وأنا منك، أي: أمرنا واحد لا مباينة فيه ولا مخالفة...»(١).

ويقول سيد قطب -رحمه الله- وهو يفسر هذه الآية، ويبين وجه انحراف المنافقين: «المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، المنافقون في كل زمان، وفي كل مكان، تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية، ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة، تلك سماتهم الأصيلة، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس، وهم حين يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دساً وهمساً، وغمزاً ولمزاً؛ لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون، إنهم (نسوا الله) فلا يحسبون إلا حساب الناس، وحساب المصلحة، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس، يذلون لهم، ويداورونهم (فنسيهم) الله فلا وزن لهم ولا اعتبار، وإنهم لكذلك في الدنيا بين الناس، وإنهم لكذلك في الآخرة عند الله، وما يحسب الناس حساباً إلا للرجال الأقوياء الصرحاء، الذين يجهرون بآرائهم، ويقفون خلف عقائدهم، ويواجهون الدنيا بأفكارهم، ويحاربون أو يسالمون في وضح النهار، أولئك ينسون الناس ليذكروا إله

(١) تفسير الفخر الرازي (ج٤ ص٤٧٠).

الناس، فلا يخشون في الحق لومة لائم، وأولئك يذكرهم الله فيذكرهم الناس، ويحسبون حسابهم»[١].

وفي قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾[٦٧ سورة التوبة] المنكر هنا: إما شرعي، وهو ما يستقبحه الشرع وينكره، وإما فطرى: وهو ما تستنكره العقول الراجحة، والفطر السليمة؛ لمنافاته للفضائل والمنافع الفردية والمصالح العامة.

وضده المعروف في كل ذلك، أي: إن بعضهم يأمر بعضاً بالمنكر كالكذب والخيانة، وإخلاف الوعد، ونقض العهد كما جاء في الحديث: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)[٢] رواه الشيخان عن أبى هريرة.

وقوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾[٦٧ سورة التوبة] ينهون عن المعروف كالجهاد وبذل المال في سبيل الله للقتال، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهّ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾[٧ سورة المنافقون] واقتصر هنا من منكراتهم الفعلية على الامتناع عن البذل؛ لأنه شرها وأضرها وأقواها دلالة على النفاق، كما أن الإنفاق في سبيل الله أقوى دلائل الإيمان.

وقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾[٦٧ سورة التوبة] وقبض الأيدي: يراد به الكف عن البذل، وضده بسط اليد، وقيل: قبض أيديهم عبارة عن

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (ج١/ ص٢١- ٣٣) وفي غيره من الأبواب، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال المنافق(٥٩).

ترك الجهاد، وفيما يجب عليهم من حق[١].

والحاصل أن في قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾أربعة أقاويل:

أحدها: يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، قاله الحسن ومجاهد.

والثاني: يقبضونها عن كل خير، قاله قتادة.

والثالث: يقبضونها عن الجهاد مع النبي ﷺ، قاله بعض المتأخرين.

والرابع: يقبضون أيديهم عن رفعها في الدعاء إلى الله تعالى[٢].

أو يكون المعنى: يبغضون المؤمنين، فهو إشارة إلى معنى قوله سبحانه: ﴿وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾[آل عمران: ١١٩] أو يكون المعنى: لا ينصرون المؤمنين[٣].

وقوله: ﴿نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[٦٧ سورة التوبة] أي: تركوا أوامره حتى صارت بمنزلة المنسيّ، فنسيهم: أي فجازاهم على نسيانهم بحرمانهم من الثواب على ذلك في الآخرة.

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٦٧ سورة التوبة] الفاسقون: أي: الخارجون عن الطاعة، المنسلخون عن فضائل الإيمان، فالمنافقون هم الفاسقون الكاملون في الفسق.

والنفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو نوعان: اعتقادي وعملي، فالاعتقادي: هو النفاق الأكبر، وصاحبه مع الكفار مخلد معهم في النار.

---

(١) تفسير القرطبي (٨/١٩٩).
(٢) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٢/ ٣٧٩).
(٣) تفسير الألوسي (روح المعاني) (٥/ ٣٣١).

قال السعدي: حصر الفسق فيهم لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد[١].

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١. في هذه الآية: جعل الله تعالى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام، والقتال عليه[٢].

فالذي لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر فهذا من المنافقين؛ لأنهم بالعكس في ذلك، فها هم اليوم يأمرون بالمنكر، بل يأمرون بكل منكر، ويدعون إليه، ويدعون المسلمين إلى أن يتخلوا عن دينهم، ويسمون التمسك بالدين تشدداً وغلواً، فيقولون: لا بد أن يترك المسلمون هذا، ولا بد أن تتمرد النساء، ويتركن الحجاب، اتركوا الولاء والبراء، واجعلوا الناس سواء ما بينهم فرق، هذا أمر بالمنكر.

فالمنافقون والمنافقات على طبيعة سواء يجمعهم النفاق، ويؤلف بينهم، من رجال ونساء، حتى لكأنهم أفراد أسرة واحدة، تجمعها لحمة النسب والقرابة، وتؤلف بينها مشاعر الحب والولاء، وذلك أن المنافق لا يجد المرعى الخصيب الذي يغذّى فيه نفاقه، ويحقق به وجوده، ويرضى فيه مشاعره إلا في بيئة منافقة، تتجاوب معه، وتروّج لهذه البضاعة التي

(١) تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن) (ص: ٣٤٣).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٤٧).

يتعامل بها؛ ذلك أن بضاعة المنافقين بضاعة خبيثة، وطعام فاسد عفن، لا تقبله إلا النفوس المريضة، ولا تستطعمه إلا الطبائع الخبيثة، إنه عملة زائفة، لا تروج إلا في الظلام، ولا يتعامل المتعاملون بها إلا في أوكار اللصوص، وفي حانات الخمر، حيث تدور الرؤوس، وتذهب العقول[١].

إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من واجبات الدين، ولا بد منه في الإسلام، فإذا وجد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فهذا علامة نجاة الأمة، وقد أمرنا الله سبحانه بالأمر والنهي، والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلمه لا يمكنه النهي عنه، وقد أوجب الله علينا فعل المعروف، وترك المنكر، فإن حب الشيء وفعله، وبغض ذلك وتركه لا يكون إلا بعد العلم بهما، حتى يصح القصد إلى فعل المعروف، وترك المنكر، فإن ذلك مسبوق بعلمه، فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا بغض، ولا فعل ولا ترك، لكن فعل الشيء والأمر به يقتضي أن يعلمه علماً مفصلاً يمكن معه فعله، والأمر به إذا أمر به مفصّلاً؛ ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات، مثل صفة الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإذا أمر بأوصاف فلا بد من العلم بثبوتها، فكما أنا لا نكون مطيعين إذا علمنا عدم الطاعة، فلا نكون مطيعين إذا لم نعلم وجودها، بل الجهل بوجودها كالعلم بعدمها، وكل منهما معصية، فإن الجهل بالتساوي كالعلم بالتفاضل في بيع الأموال الربوية، وأما معرفة ما يتركه،

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٨٣٦).

وينهى عنه فقد يكتفي بمعرفته في بعض المواضع مجملاً، فإن الإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره، وقد يحتاج إلى الحجج المبينة لذلك، وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها، وإلى دفع أهوائهم، وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك، ولا يكون ذلك إلا بالصبر[١].

(١) تفسير القاسمي (محاسن التأويل) (٧/ ٣٥٣).

❁ الآية العاشرة:

من أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٧١ سورة التوبة].

بعد أن ذكر الله تعالى صفات المنافقين، وأن من أخص صفاتهم: أنهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ذكر الله تعالى هنا في هذه الآية هذه الصفات الأربع للمؤمنين: وهي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لتقابل من صفات المنافقين: الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، ونسيان الله، وقبض الأيدي.

قال ابن كثير: لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[٧١ سورة التوبة] أي: يتناصرون ويتعاضدون[١].

فجُعلت السمة الاجتماعية للمؤمنين هي القيام بهذا الواجب، قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٧١ سورة التوبة] وجعل الله تعالى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين؛ فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه.

---

(١) تفسير ابن كثير (ج٤/ ص١٧٤).

وذلك أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو الوثاق المتين الذي تتماسك به عرى الدين، وتحفظ به حرمات المسلمين، وتظهر أعلام الشريعة، وتغشو أحكام الإسلام، وبارتفاع سهمه يعلو أهل الحق والإيمان، ويندحر أهل الباطل والفجور، ويورث القوة والعزة في المؤمنين، ويذل أهل المعاصي والأهواء، وترغم أنوف المنافقين، يقول سفيان -رحمه الله-: «إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر أخيك، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق»(١).

فقوله هنا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾[٧١ سورة التوبة] أي: ذكورهم وإناثهم.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[٧١ سورة التوبة] أي: في المحبة والموالاة والانتماء والنصرة، فهذه هي السمة الاجتماعية للمؤمنين، وهي القيام بهذا الواجب، يقول سيد قطب -رحمه الله-: «إن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض، فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة، وإلى تعاون، وإلى تكاليف، وطبيعة النفاق تأبى هذا كله، ولو كان بين المنافقين أنفسهم، إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة، على ما يبدو بينهم من تشابه في الطبيعة والخلق والسلوك، والتعبير القرآني الدقيق لا يغفل هذا المعنى في وصف هؤلاء وهؤلاء(٢).

وفي قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾أيضاً إشارة إلى أن طبيعة المؤمن

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأبي بكر بن الخلال (ج١/ ص ٧٨).
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٤٨).

هي طبيعة الأمة المؤمنة، طبيعة الوحدة، وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير، ودفع الشر.

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٧١ سورة التوبة] المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم.

وقوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٧١ سورة التوبة] المنكر هو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة.

وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾[٧١ سورة التوبة] أي: المكتوبة في أوقاتها وحدودها وأركانها وشروطها، في الجمعة والجماعات، وإقامتها ليس مجرد الأداء فقط.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[٧١ سورة التوبة] أي: المفروضة عليهم خصوصاً، وعلى رعيتهم عموماً، آتوها أهلها الذين هم أهلها، فالزكاة قرينة الصلاة في وجوبها، ومهمة أخذها وتوزيعها على من يتولى أمر المسلمين.

﴿وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[٧١ سورة التوبة] أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَه﴾بعد قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[٧١ سورة التوبة] من عطف العام على الخاص؛ لأن إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، داخلان في عموم قوله: ﴿وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَه﴾وعطف العام على الخاص وعكسه كلاهما من الإطناب المقبول إذا كان في الخاص مزية ليست في غيره من أفراد العام.

ولا شك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة في هذه الآيات ونحوها من نصوص الوحي محصورة في العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ(١).

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾[٧١ سورة التوبة] أي: يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه.

وإن رحمة الله للمؤمنين لتقابل لعنته للمنافقين والكفار، وإن تلك الصفات لهي التي وعد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين في الأرض ليحققوها في وصايتهم الرشيدة على البشرية.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٧١ سورة التوبة] أي: قوي قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه، وأمر به، فهو قادر على إعزاز الفئة المؤمنة؛ ليكون بعضها أولياء بعض في النهوض بهذه التكاليف، حكيم في تقدير النصر والعزة لها؛ لتصلح في الأرض، وتحرس كلمة الله بين العباد.

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١. في الآية ذكر أخص صفات المؤمنين والمؤمنات، وهي: أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وهي تقابل من صفات المنافقين: الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف.

٢. وفيها: بيان أهمية هذه الفريضة، وأنها ضرورية للحفاظ على سمة المجتمع المسلم، يقول سيد قطب -رحمه الله-: «وحين يقوم المجتمع المسلم الذي تحكمه شريعة الله فيدين لله وحده،

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ج٥٠/ ص٩٢).

ولا يدين لسواه يكون الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في داخل هذا المجتمع؛ ويتناول ما يقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج الله وشرعه، ولكن حين لا يكون في الأرض مجتمع مسلم؛ وذلك حين لا يكون في الأرض مجتمع الحاكمية فيه لله وحده، وشريعة الله وحدها هي الحاكمية فيه، فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولاً إلى الأمر بالمعروف الأكبر، وهو تقرير ألوهية الله وحده سبحانه، وتحقيق قيام المجتمع المسلم.

والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولاً إلى النهي عن المنكر الأكبر، وهو حكم الطاغوت، وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة الله، والذين آمنوا بمحمد ﷺ هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة، فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي، ولم ينفقوا قط جهدهم قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل!

ومفهوم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع، فلا يبدأ بالمعروف الفرعي، والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر، والمنكر الأكبر، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم[1].

وقال أيضاً: «هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد الله معها بيعته،

(١) في ظلال القرآن(٤/ ٨٨).

وهذه هي صفاتها ومميزاتها: توبة ترد العبد إلى الله، وتكفه عن الذنب، وتدفعه إلى العمل الصالح، وعبادة تصله بالله، وتجعل الله معبوده وغايته ووجهته، وحمد لله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله، والثقة المطلقة برحمته وعدله، وسياحة في ملكوت الله مع آيات الله الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة، وحفظ لحدود الله يرد عنها العادين والمضيعين، ويصونها من التهجم والانتهاك، هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها الله على الجنة، واشترى منها الأنفس والأموال؛ لتمضي مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسوله ورسالاته، قتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله؛ وقتل لأعداء الله الذين يحادّون الله؛ أو استشهاد في المعركة التي لا تفتر بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية، وبين الشريعة والطاغوت، وبين الهدى والضلال[1].

وفي هذه الآية بيان أن الوظائف الاجتماعية وعلى رأسها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وظائف مشتركة بين الرجال والنساء، أو بين المؤمنين والمؤمنات، فهم جميعاً (يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر).

فقد أرست القاعدة الراسخة الأساسية في أن المرأة مثل الرجل مطالبة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في مقابل: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾[٦٧ سورة التوبة] فإذا كانت المنافقة تأمر بالمنكر، فالمؤمنة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وهذا بنص القرآن، وأيضاً في قوله تعالى: ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٨٩).

عَنِ الْمُنكَرِ﴾[١١٢ سورة التوبة] يشمل الرجال، ويشمل النساء جميعاً إلا أن المرأة لها شروطها في القيام بهذه الفريضة.

❁ الآية الحادية عشر:

من وظيفة الدولة المسلمة القيام بهذه الشعيرة

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[٤١ سورة الحج].

قيل: المراد بـ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾هم الصحابة -رضي الله عنهم-، وقيل: الأمة كلها، وقيل: الخلفاء الأربعة؛ لأنهم هم الذين مُكِّنوا في الأرض بالخلافة، وفعلوا ما وصفهم الله به، وعلى هذا التأويل يكون فيه دليل صحة أمرِ الخلفاء الراشدين؛ لأن الله - عز وجل- أعطاهم التمكين، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة[١].

قال القرطبي: ويكون: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض﴾أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ لم يكن في الأرض غيرهم[٢].

وذكر أقوالاً فيهم:

قال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ.

وقال ابن عباس: «هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان».

وقال عكرمة: هم أهل الصلوات الخمس.

وقال الحسن وأبو العالية: هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة.

وقال ابن أبي نجيح: يعني: الولاة.

وقال الضحاك: هو شرط شرطه الله -عز وجل- على من آتاه الملك،

(١) انظر: البحر المديد (ج٤/ ص١٤٩).

(٢) تفسير القرطبي (ج١٢/ ص٧٣).

وهذا حسن.

وقال سهل بن عبد الله: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر واجب على السلطان، وعلى العلماء الذين يأتونه، وليس على الناس أن يأمروا السلطان؛ لأن ذلك لازم له، واجب عليه، ولا يأمروا العلماء فإن الحجة قد وجبت عليهم(١).

والأكثرون من المفسرين: أن هذا وصف من الله للذين أخرجوا من ديارهم، بما سيكون منهم من حسن السيرة عند تمكينه تعالى إياهم في الأرض، وإعطائه إياهم زمام الأحكام، وهم أصحاب رسول الله ﷺ.

ولعل الراجح حمل الآية على العموم؛ لأنه وإن كان سبب نزول الآية هو إيذاء كفار قريش لأصحاب الرسول ﷺ، وهجرتهم إلى المدينة إلا أن نَظْم الآية، والقوالب التي صيغت بها معانيها جاءت عامة كليةً تشمل جميع من توفرت فيه شروط التمكين في الأرض، والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، كما هو مقرر في الأصول.

وذكر كثيرٌ من المفسرين أن هذه الآية الكريمة قد تضمَّنت الغاية الكبرى من وجود الدولة المسلمة الصالحة، وبيان الأسس والدعائم التي تقوم عليها تلك الدولة، وأن القيام بالمبادئ المذكورة، والتقيد بمضمونها هو الشرط الذي شرطه الله لمن يستحق النصر في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرنَّ الله مَنْ ينْصُرُه إنَّ الله لقويٌّ عزيز﴾[٤٠ سورة الحج].

وتلك الأسس والدعائم كما ذُكِرَت في الآية أربع:

الأولى: إقام الصلاة.

(١) تفسير القرطبي (ج١٢/ ص٧٣).

الثانية: إيتاء الزكاة.

الثالثة: الأمر بالمعروف.

الرابعة: النهي عن المنكر(١).

وفي قوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[٤١ سورة الحج] المراد من هذا التمكن: السلطنة، ونفاذ القول على الخلق، أي: نصرناهم على عدوهم حتى تمكنوا من البلاد، والمعنى: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، وقوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ﴾صفة لمن تقدم، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا﴾[٤٠ سورة الحج].

وفي قوله: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾[٤١ سورة الحج] إشارة إلى أن الله هو الممكن، وهو واهب الملك، وهو الذي ينزعه من أصحابه.

وفرّق في التحرير والتنوير بين (مكنه) و(مكن له) حيث قال: «﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾[٨٤ سورة الكهف] و﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾[٤١ سورة الحج]... الآية، فمعنى مكنه: جعله متمكناً، ومعنى مكن له: جعله متمكناً لأجله، أي رعياً له مثل حمده وحمد له، فلم تزده اللام ومجرورها إلا إشارة إلى أن الفاعل فعل ذلك رغبة في نفع المفعول، ولكن الاستعمال أزال الفرق بينهما، وصير مكنه ومكن له بمعنى واحد، فكانت اللام زائدة، كما قال أبو علي الفارسي، ودليل ذلك قوله تعالى هنا: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾[٦ سورة الأنعام] فإن المراد بالفعلين هنا شيء واحد لتعين أن يكون معنى الفعلين مستوياً

(١) انظر: دعائم التمكين (ص: ٤٥).

ليظهر وجه فوت القرون الماضية في التمكين على تمكين المخاطبين؛ إذ التفاوت لا يظهر إلا في شيء واحد؛ ولأن كون القرون الماضية أقوى تمكناً من المخاطبين كان يقتضي أن يكون الفعل المقترن بلام الأجل في جانبهم لا في جانب المخاطبين، وقد عكس هنا، وبهذا البيان نجمع بين قول الراغب باستواء فعل (مكنه) و(مكن له) وقول الزمخشري بأن: (مكن له) بمعنى جعل له مكاناً و(مكنه) بمعنى أثبته، وكلام الراغب أمكن عربية، وقد أهملت التنبيه على هذين الرأيين كتب اللغة، واستعمال التمكين في معنى التثبيت والتقوية كناية أو مجاز مرسل؛ لأنه يستلزم التقوية، وقد شاع هذا الاستعمال حتى صار كالصريح، أو كالحقيقة[١].

وفي قوله: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾[٤١ سورة الحج] أي: المكتوبة في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات، وإقامتها ليس مجرد الأداء فقط.

«أي: لم يشتغلوا في ذلك بحظوظٍ، ولكن قاموا لأداء حقوقنا»[٢].

وفي قوله: ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾[٤١ سورة الحج] أي: المفروضة عليهم خصوصاً، وعلى رعيتهم عموماً، آتوها أهلها الذين هم أهلها، فالزكاة قرينة الصلاة في وجوبها، ومهمة أخذها وتوزيعها على من يتولى أمر المسلمين.

وفي قوله: ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾[٤١ سورة الحج] هذا يشمل كلَّ معروفٍ حُسْنُه شرعاً وعقلاً، من حقوق الله، وحقوق الآدميين.

(١) التحرير والتنوير (ج١/ ص ١٢٤٨).
(٢) البحر المديد (ج٤/ ص١٤٩).

﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٤١ سورة الحج] كل منكر شرعاً وعقلاً، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعاً، أو غير مقدر كأنواع التعزير قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به.

ولا منكر أعظم ولا أكبر من الشرك بالله، فعلى الولاة محاربته ومجابهته بكل الطرق والوسائل، فهو أول منكر يجب إنكاره.

وأول ما بدأ به الرسل في دعوتهم الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، يقول الشيخ الألباني -رحمه الله-: «الواجب هو العمل للأهم فالأهم، والأهم هنا هو إصلاح عقائد المسلمين، وتزكية النفوس، والدعوة على أساس التصفية من البدع، والتربية على التوحيد».

وقال: «ويقتضي ذلك منا أن نبدأ بما بدأ به نبينا ﷺ وهو إصلاح ما فسد من عقائد المسلمين أولاً، ومن عبادتهم ثانياً، ومن سلوكهم ثالثاً»[1].

وربما يوجد من الدعاة من لو مُكن في الأرض لترك بعض أمور الدعوة، وما أقام الصلاة، وما آتى الزكاة، أو ربما يقوم بالصلاة، ويؤدي الزكاة، ولكنه لا يقوم تمام القيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وربما يتنازل بعض المحسوبين على الدعوة عن بعض الأمور الهامة، وربما يتحالف مع الشيوعيين والعلمانيين من أجل مكاسب، فهذا لا يستحق النصر.

(١) التوحيد أولًا يا دعاة الإسلام (١/ ٧).

فهذه هي شروط التمكين، فهل نحن أمة تستحق التمكين ونصف الأمة تقريباً لا يصلي؟ نصف الأمة لا يصلي وربما أكثر، هؤلاء لا يسجدون لله -عز وجل-، هل يُمكِّن لهؤلاء؟ لا يمكَّن لهم أبداً، إنما يُمكَّن الله -عز وجل- لعباده المؤمنين، الذين إن مكنّ لهم كانوا أوفياء لشرعه، فهم لم يشتغلوا في ذلك بحظوظ أنفسهم، ولكن قاموا لأداء حقوق الله المذكورة.

ومعلوم أن الصلاة والزكاة من المعروف الذي يُؤمر به، فقد جعل الله تعالى في هذه الآية الغاية النهائية من التمكين في الأرض الذي أمر الله به المؤمنين، وأمر باتخاذ وسائله من الجهاد، ونصب الإمام، وإقامة الولاية، هو تحقيق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وأنت رب أسرة ممكن في الأرض على أسرتك لماذا لا تصلي امرأتك؟ لماذا لا يصلي أولادك؟ لماذا لا يصلي خدمك؟ إذا كنت صاحب محل أو عمل والعامل لا يصلي فما دورك؟ إذا قصر عامل في أي شغل عاقبته، وربما تفصله من العمل، ثم إذا قيل لك: لم لا تنصحه؟! قلت: أنا ماذا أعمل لهم العمال كلهم هكذا؟!

مع أن هذا العامل الذي يبحث في ذلك الوقت عن عمل، والدنيا كلها متعطلة، لو علم أنك ستفصله لأجل أنه لا يصلي سيصلي ولو نفاقاً، إذاً هذا بمنزلة الخادم تماماً، طالما أنه يعمل لديك فأنت مسئول، لا تقل: أنا لا ذنب لي؛ لأن هذا ذنبك، وأنت مسئول عن عدم صلاة العامل الذي يعمل معك، سرحه لله[1].

(١) انظر: دروس للشيخ أبو إسحاق الحويني (٥٧/ ٧) بتصرف.

ولهذا فإن المقصود بالإمامة في الشريعة إقامة الدين، والدين هو فعل المعروف والأمر به، وترك المنكر والنهي عنه، كما قال شيخ الإسلام: «يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها»[١].

ومعلوم أن الدولة في الإسلام أصل وجودها لتحقيق الحسبة بمعناها العام، وهي أيضاً -أعني الحسبة- أمانة في عنق الأمة، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[١١٠ سورة آل عمران].

والدولة إذا عطلت هذا الأمر -وهو الأمر الذي نسب إليه نظام الدولة في الإسلام في النصوص التي جاءت بلفظ: (أولي الأمر)- فقدت أصل مشروعيتها، بل سبب وجودها الشرعي؛ ولهذا جاء في الحديث: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)[٢] فـ(الأمر) هو الذي جاء به النبي ﷺ المدلول عليه بآية ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ}... الآية، ووليه هو القائم عليه الذي يرعاه ويقيمه، فإن لم يرعه ولم يقمه لم يصلح ولياً له.

والعجب ممن يجعل كل متولٍ على المسلمين بأي شريعة يحكمهم ولي أمر شرعي، فليت شعري أفلا يتدبر هذا القائل إن لم يُؤت الفقه في الدين اللفظ الظاهر على أقل تقدير، فأي (أمر) تولاه الحاكم بغير ما

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٩٠.

(٢) أخرجه الترمذي (٢/ ١٠٣- بولاق) وابن ماجه (٣٩٧٣) وأحمد (٥/ ٢٣١) وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: (٥١٣٦).

أنزل الله تعالى حتى يستحق هذا الاسم؟! أهو أمر (دين الإسلام) أمر الله ورسوله، أم أمر المناهج الوضعية والنظم الطاغوتية؟!

وأي أمر للمسلمين غير دينهم الذي قال الله تعالى عنه مُمتناً عليهم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[٣ سورة المائدة] وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾[١١٥ سورة الأنعام] أي: تمت كلمته الشرعية التي تضمنها كتابه المفصل الحاكم بين العباد، صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام(١).

والكلام -هنا في الآية- مسوق للتنبيه على الشكر على نعمة النصر؛ بأن يأتوا بما أمر الله به من أصول الإسلام، فإن بذلك دوام نصرهم، وانتظام عقد جماعتهم، والسلامة من اختلال أمرهم، فإن حادوا عن ذلك فقد فرطوا في ضمان نصرهم، وأمرهم إلى الله(٢).

وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[٤١ سورة الحج] أي: مرجعها إليه في الآخرة، والمعنى: آخر أمور الخلق ومصيرهم، أي: يبطل كل ملك سوى ملكه، فتصير الأمور له بلا منازع، وفيه: تَوَعُّدٌ للمخالف عن هذه الأمور التي تقتضيها الآية لمن مُكن، فجميع الأمور ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه أي: على العباد من الملوك، وقام بأمر الله كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك مؤقت فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشؤومة، وعاقبته مذمومة.

---

(١) انظر: موسوعة البحوث والمقالات العلمية (٢/ ٤).
(٢) التحرير والتنوير (ج١/ ص٢٧٨٧).

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١. في الآية دلالة على أخذ العهد على مَنْ مكَّنه الله أن يفعل ما رتب على التمكين في الآية.

٢. وفيها: دليل على أنه لا وعد من الله بالنصر إلا مع إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فالذين يمكن الله لهم في الأرض، ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم، ومع ذلك لا يقيمون الصلاة، ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر فليس لهم وعد من الله بالنصر؛ لأنهم ليسوا من حزبه، ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه، فلو طلبوا النصر من الله بناء على أنه وعدهم إياه، فمثلهم كمثل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أجر عليه، ثم يطلب الأجرة، ومن هذا شأنه فلا عقل له[١].

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين، ثم يقولون: إن الله سينصرنا مغررون؛ لأنهم ليسوا من حزب الله الموعودين بنصره كما لا يخفى.

ومعنى نصر المؤمنين لله نصرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم، في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتتمثل أوامره، وتجتنب نواهيه، ويحكم في عباده بما أنزل على رسوله ﷺ[٢].

٣. وفيها: إخبار بالغيب عما تكون عليه سيرتهم إنْ مكَّن لهم في

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ج٢٥/ ص١٣).
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ج٥٠/ ص١٦).

الأرض، وبسط لهم في الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدين!

٤. وفيها: بيان وظيفة الدولة المسلمة، وأن الحق لا يكفيه كونه حقاً فقط، وإنما يجب أن يقوم أهله بحمايته، والدعوة إليه، ومن أهم الركائز التي تتحتم على ولي الأمر لتحقيق هذا المقصد -وهو حراسة الدين وحفظه- قطع صلة المجتمع المسلم بالمجتمعات الكافرة والفاسقة، ومنع بث أفكارهم وعاداتهم، وما يمت إليهم بصلة بين المسلمين.

٥. وفي الآية دلالة على أن الولاة والأئمة ومن ينتدبهم أو يستنيبهم ولي الأمر عنه هم الأولى بالقيام بشعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأن هؤلاء متمكنون بالولاية ووجوب الطاعة، ومن أنواع القيام بذلك إقامة الحدود، والعقوبات مما لا يفعله إلا الولاة والحكام، فلا عذر لمن قصر منهم عند الله تعالى؛ لأنه إذا أهمل الولاة والحكام القيام بذلك فجدير ألا يقدر عليه من هو دونهم من رعيتهم، فيوشك أن تضيع حرمات الدين، ويستباح حمى الشرع والمسلمين، فالآية أمكن ما هي في الملوك.

٦. وفي الآية إشارة إلى أن المستحقين للخلافة والتي هي السلطان والملك والقيادة والولاية على الناس هم الموصوفون بهذه الصفات، أما غيرهم فلا يستحقون ذلك، فهي في الأصل للمؤمنين العاملين بالحق، الحاكمين بالعدل والإنصاف بين الناس؛ كما وصفهم الله تعالى في هذه الآية.

❁ الآية الثانية عشر:

لا بد أن يكون في كل أمة بقية صالحة مصلحة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لتنجو من الهلاك والعذاب

قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[١١٦ سورة هود].

هذه الآية تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه ومقاومته هي أمة ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، وأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، ويعصي فيها العصاة، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال والاختلال!

وعلى هذا فأصحاب الدعوة إلى عبادة الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره هم صمام الأمان للأمم والشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ألوهية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره، إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع[1].

وهذه الآية والتي بعدها وهي قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٧٣) بتصرف.

بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[١١٧ سورة هود] هما خلاصة سورة هود في رسالة الأنبياء حتى لا يدركهم الهلاك، والآية الأولى تتحدث عن قوم أولي بقية من عقل أو دين -كما يذكر القرطبي- يقومون بواجب الإصلاح والبيان، والنهي عن الفساد في الأرض، وليس في ديار الإسلام فقط، وأن قيام هؤلاء بواجب الإصلاح هو العاصم من القواصم، والحافظ من الإهلاك في الآية الثانية(١).

ولو فعلت أمتنا ما فعله أولئك لأصابها -بجميع فئاتها- ما أصاب أولئك، ولكن الله -جل وعلا- كفل لهذه الأمة المحمدية أنه لا يزال في هذا الدين باقية، ولا تزال طائفة من هذه الأمة ينادون بالحق، ويدعون إليه، يقول عليه الصلاة والسلام: (لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)(٢) ففي هذا الحديث دلالة على أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة متمسكة بهذا الدين، مقيمة حجة الله على العالمين، وذلك فضله -سبحانه- على هذه الأمة.

وفي قوله: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾[١١٦ سورة هود] أي: فهلا كان منهم مَنْ ينهى، والمعنى: أي: فهلا كان من الأمم الماضية قبلكم أولو عقل وفضل وجماعة أخيار ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض، وهذا تحريض لأمة محمد -عليه الصلاة والسلام-،

(١) انظر: الخلاصة في فقه الأقليات (١/ ٣٣) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[النحل: ٤٠] (٩/ ١٣٦- ٧٤٦٠).

كما قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[١٠٤ سورة آل عمران]... الآية.

و(لولا) في الآية للتحضيض، صَحِبها معنى التأسف والتفجع، مثل قوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾[٣٠ سورة يـس] والغرضُ التأسف على تلك الأمم التي لم تهتد كقوم (نوح وعاد وثمود) وغيرهم.

وقال ابن عباس والفراء: المعنى: فلم يكن، وقال ابن قتيبة: المعنى: فهلا كان من القرون من قبلكم أولو بقية، وروى ابن جماز عن أبي جعفر: أولو بقية بكسر الباء، وسكون القاف، وتخفيف الياء.

وفي معنى أولو بقية، ثلاثة أقوال:

أحدها: أولو دين، قاله ابن عباس، قال ابن قتيبة: يقال: قوم لهم بقية، وفيهم بقية إذا كانت بهم مسكة، وفيهم خير. والثاني: أولو تمييز.

والثالث: أولو طاعة، ذكرهما الزجاج، وقال: إذا قلت: فلان فيه بقية، فمعناه: فيه فضل[١].

فتكون (البقية) إما بمعنى الباقية، والتأنيث لمعنى الخصلة أو القطعة، أو بقية من الرأي والعقل، أو بمعنى الفضيلة، والتاء للنقل إلى الاسمية كالذبيحة وأطلق على الفضل (بقية) استعارة من البقية التي يصطفيها المرء لنفسه، ويدخرها مما ينفقه، فإنه يفعل ذلك بأنفسها؛ ولذا قيل: (في الزاويا خبايا، وفي الرجال بقايا) و(فلان من بقية القوم) أي: من خيارهم، وجوز كون (البقية) مصدراً بمعنى (البقوى) كالتقية بمعنى التقوى، أي: فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم، صيانة لها من سخطه

(١) زاد المسير (٤/ ١٧٠).

تعالى وعقابه[١].

وقال ابن جريج: يستقلهم الله من كل قوم[٢].

وقوله: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾[١١٦ سورة هود] أي: ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض بالشرك، وسائر المعاصي.

وقوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[١١٦ سورة هود] أي: ولكنْ قَليلاً مِنْهُمْ مَنْ يَنْهى، والاستثناء منقطع، أي: لكن قليلاً منهم نهَوا عن الفساد فَنَجَوا.

وفي قوله: ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[١١٦ سورة هود] دليل على أن الأمر بالمعروف سبب للنجاة من الهلاك والعذاب، وفيها دليل على أنه لا بد أن يكون في كل أمة بقية صالحة مصلحة، لا تكتفي بصلاح نفسها وعبادة ربها، بل تتجاوز ذلك إلى إصلاح غيرها أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، فإن وجدت هذه الطائفة لكان الحال على غير الحال، ولكان الخير أوسع دائرة، والصلاح أظهر وضوحاً مما هو الأمر عليه.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾[١١٦ سورة هود] أي: واتبع أولئك الظلمة شهواتهم، وما نُعموا به من الاشتغال بالمال واللذات، وآثروها على الآخرة، فصاروا منعمين فيه من الشهوات، حتى فجأهم العذاب، واتباعه كناية عن الاهتمام به وترك غيره، كما هو دأب التابع للشيء.

قال الفراء: آثروا اللذات على أمر الآخرة، قال: ويقال: اتبعوا

(١) انظر: محاسن التأويل (تفسير القاسمي) (٢/ ٥) بتصرف.
(٢) تفسير الطبري (ج ١٥/ ص٥٢٧).

ذنوبهم السيئة إلى النار[١].

وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾أعم من المباشرين بأنفسهم للفساد، ومن تاركي النهي عنه، وقصره الزمخشري على الثاني؛ لأنهم المقصود بالنعي قبله، حيث قال: «أراد بـ(الذين ظلموا) تاركي النهي عن المنكرات، أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعقدوا هممهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والتترف، من حب الرئاسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك، ونبذوه وراء ظهورهم»[٢].

وقوله: ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[١١٦ سورة هود] أي: وكانوا قوماً مصرين على الإجرام؛ باتباعهم المذكور، أو كافرين، وقيل: كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشو الظلم فيهم، واتباعهم للهوى، وترك النهي عن المنكرات مع الكفر.

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

- أن في هذه الآية دعوة من الله للناس أن يكون منهم من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر عند فساد الناس، وأصحاب هذه الصفة هم الناجون من عذاب الله في الدنيا والآخرة، ومن هم يا ترى أهل هذه الصفة؟! إنهم أولئك الغرباء الذين يصلحون ما أفسده الناس، ومن هؤلاء؟ إنهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: (بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء) قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟

(١) زاد المسير (٤/ ١٧١).
(٢) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) (٢/ ٥).

قال: (الذين يصلحون إذا فسد الناس)[١] رواه أحمد.

وفي الحديث الآخر من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء) قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: (النزاع[٢] من القبائل)[٣] رواه أحمد وابن ماجه.

وفي حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن عنده: (طوبى للغرباء) قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: (ناس صالحون في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم)[٤] رواه أحمد.

فكم من الناس اليوم يتصف بصفات الغرباء التي ذكرها النبي ﷺ في أحاديثه المتعددة؟! كم من الناس اليوم قد أصلح نفسه عند فساد الكثير؟ وكم من الناس اليوم يصلح ما أفسده الناس؟ وكم من الناس اليوم يحيي سنة النبي ﷺ؟ وكم من الناس اليوم ينشر سنة النبي ﷺ، ويعلمها للناس؟»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (ج٢٧/ ص٢٣٧- ١٦٦٩٠) وهو عند مسلم بلفظ: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء) (ج١/ ص٩٠- ٣٨٩).

(٢) النزاع: في النهاية: جمع نازع ونزيع، وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته، أي: بعد وغاب، أي طوبى للمهاجرين الذين هجروا أوطانهم في الله تعالى.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريباً (ج٢/ ص١٣٢٠- ٣٩٨٨) وأحمد (ج٦/ ص٣٢٥- ٣٧٨٤) وصححه الألباني دون: «قال : قيل ...» الصحيحة (٢٦٩/ ٣) صحيح ابن ماجه برقم: (٣٢٣٢).

(٤) أخرجه أحمد (ج١١/ ص٦٤٣- ٧٠٧٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع انظر حديث رقم: (٣٩٢١).

(٥) انظر: الخلاصة في فقه الأقليات (١-٩) (٢/ ١٠٩) بتصرف.

❁ الآية الثالثة عشر:

من أوصاف المؤمنين أنهم آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر

قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١١٢ سورة التوبة].

هذه أوصاف ثمانية للمؤمنين، وهي غايات خطاب الله تعالى لأهل الإسلام، وهي تبين سلامة نفوسهم، ورقابتهم عليها لدوام تطهيرها، فكلما صدأت أزالوا صدأها، وتكفيهم تلك الصفات من الله فخرًا، وتتويجًا لأعمالهم في الدنيا، ونجاةً يوم القيامة من عذاب الله.

«وبالتأمُّل نُلاحِظ أَن هذِهِ الصفاتِ المذكورات لخيار المؤمنين متعانقاتٌ تَعَانُقاً متلائماً يستدعي سابقُها تاليَها لدى التحليل الذهني، فالتوبة هي المطلوب الأول من الصفات؛ لأنها بمثابة تنظيف الدار قبل جلْبِ الأثاث إليها، وبعد التوبة تأتي العبادة، وأولُ عناصر العبادة الحمد، فالسياحة بمعنى إطلاق الفكر في آياتِ الله وآلائه، فكثرة الركوع والسُّجُودِ في الصلوات لله -عز وجل-، فالقيام بوظيفة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فالمحافظة على حدود الله عند كل عملٍ لله فيه حكم شرعِي ذو حدٍّ من الحلال والحرام.

وهكذا جاءت مفردات الصفات منسابةً متلائمة على سياق واحد، لا تنافر فيه، ولا شذوذ»[1].

---

(١) انظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها(١/ ٨١٨) بتصرف.

وفي قوله: ﴿التَّائِبُونَ﴾[١١٢ سورة التوبة] أي: مما أسلفوا، العائدون إلى الله مستغفرين، والتوبة شعور بالندم على ما مضى، وتوجه إلى الله فيما بقي، وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك، فهي طهارة وزكاة، وتوجه وصلاح.

والتائبون هم الذين يراقبون أنفسهم، وتشتد فيهم قوة النفس اللوامة، فهم كلما أحسوا بأمر يدنس أمرها، أو يكون فيه شك، أو يكون غيره أولى، أو تركه أولى، تابوا فهم يراقبون أنفسهم، يتوبون دائماً إلى ربهم منيبين إليه، وكأن في يدهم مكيالاً مملوءاً ماء يزيل أي دنس يعتري نفوسهم بالتوبة، كما يطهر أي غبار يقع على الثوب[١].

وللمفسرين في قوله: ﴿التائبون﴾[١١٢ سورة التوبة] قولان:

أحدهما: الراجعون عن الشرك والنفاق والمعاصي.

والثاني: الراجعون إلى الله في فعل ما أمر، واجتناب ما حظر[٢].

وقوله: ﴿الْعَابِدُونَ﴾[١١٢ سورة التوبة] أي: المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة وبالعبودية إقراراً بالربوبية، وهذه صفة ثابتة في نفوسهم تترجمها الشعائر، كما يترجمها التوجه إلى الله وحده بكل عمل، وبكل قول، وبكل طاعة، وبكل اتباع، فهي إقرار بالإلوهية والربوبية لله في صورة عملية واقعية، بالقيام بحق الله تعالى، يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فهم يشعرون بأنه يراهم، والوصفان "التائب والعابد" مقترنان، أولهما للتخلية، والثاني للتحلية.

(١) زهرة التفاسير (١/ ٣٤٥٦).
(٢) زاد المسير (٣/ ٥٠٥).

وفي قوله: ﴿العابدون﴾[١١٢ سورة التوبة] ثلاثة أقوال:

أحدها: المطيعون لله بالعبادة، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: المقيمون الصلاة، قاله الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: الموحدون، قاله سعيد بن جبير[١].

وقوله: ﴿الْحَامِدُونَ﴾[١١٢ سورة التوبة] أي: الذين تنطوي قلوبهم على الاعتراف للمنعم بالنعمة، وتلهج ألسنتهم بحمد الله في السراء والضراء، في السراء للشكر على ظاهر النعمة، وفي الضراء للشعور بما في الابتلاء من الرحمة، وليس الحمد هو الحمد في السراء وحدها، ولكنه الحمد في الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليبتلي المؤمن إلا لخير يعلمه، مهما خفي على العباد إدراكه، والمقصود أنهم يحمدون الله على كل حال.

وقوله: ﴿السَّائِحُونَ﴾[١١٢ سورة التوبة] اختلف المفسرون في معنى هذا الوصف (السائحين) على أربعة أقوال:

أحدها: الصائمون، قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة في آخرين، قال الفراء: ويرى أهل النظر أن الصائم إنما سمي سائحاً تشبيها بالسائح؛ لأن السائح لا زاد معه، والعرب تقول للفرس إذا كان قائماً لا علف بين يديه: صائم، وذلك أن له قوتين غدوة وعشية، فشبه به صيام الآدمي لتسحره وإفطاره.

والثاني: أنهم الغزاة، قاله عطاء، فقد روى أبو أمامة أن رجلاً استأذن

---

(١) زاد المسير (٣/ ٥٠٥).

النبي ﷺ في السياحة فقال ﷺ: (إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله)[١].

والثالث: طلاب العلم، قاله عكرمة.

والرابع: المهاجرون، قاله ابن زيد[٢].

على أن أكثر المفسرين أن السائحين: هم الصائمون، فقد ورد في الأثر: (إن سياحة أمتي الصوم)[٣]. قال القاسمي -رحمه الله-: «تفسير السائحين بالصائمين قال الزجاج: هو قول أهل التفسير واللغة جميعاً، ورواه الحاكم مرفوعاً، وكذلك ابن جرير، قال ابن كثير: ووقفه أصح، وعن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن من السياحة فهو الصيام، وعن الحسن: السائحون الصائمون شهر رمضان، قال الشهاب: استعيرت السياحة للصوم لأنه يعوق عن الشهوات كما أن السياحة تمنع عنها في الأكثر[٤].

والجمع بين الآراء أن نقول: السياحة تشمل كل سياحة في سبيل الله، فتشمل السياحة في الجهاد، والسياحة في نشر الإسلام، والسياحة في تعرف أحوال المسلمين، كما تشمل سبح الفكر سائحاً في ملكوت الله تعالى، والمقصود من السياحة المنهي عنها هنا: سكنى البراري، وترك المباحات والمألوفات قهراً للنفس[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، في النهي عن السياحة (٢٤٨٦).
(٢) زاد المسير (٣/ ٥٠٥).
(٣) ذكره أبو السعود في تفسيره (ج ٤، ص ١٠٤).
(٤) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) (٥/ ٥١١).
(٥) زهرة التفاسير (١/ ٣٤٥٦).

وقال القاسمي -رحمه الله-: «ونقل الرازي عن أبي مسلم أن السائحين: السائرون في الأرض، وهو مأخوذ من السيح، سيح الماء الجاري، والمراد به من خرج مجاهداً مهاجراً، وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين في الآية الأولى على الجهاد، ثم ذكر هذه الآية في بيان صفات المجاهدين، فينبغي أن يكونوا موصوفين بجميع هذه الصفات.

قال ابن كثير: جاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، فقد روى أبو داود من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، فقال النبيّ ﷺ: (سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله)[1] [2].

قال القاسمي: لو أخذ هذا الحديث تفسيراً للآية لالتقى مع كل ما روي عن السلف فيها؛ لأن الجهاد في سبيل الله كما يطلق على قتال المشركين يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس في عبادته تعالى، ومنه الهجرة والصوم والسفر للتفقه في الدين أو للاعتبار، بل ذلك هو الجهاد الأكبر، هذا على إرادة التوفيق بين المأثورات، أما لو أريد باللفظ أصل حقيقته اللغوية أعني الضرب في الأرض خاصة الذي عبر عنه عكرمة بالمنتقلين لطلب العلم لكان بمفرده كافياً في المعنى، مشيراً إلى وصف عظيم، وهذا ما حدا بأبي مسلم أن يقتصر عليه هو الحق في تأويل الآية...

وقد عهدنا بألفاظ القرآن أنها يجب حملها على ظواهرها، وعلى معانيها الحقيقية، اللهم ما لم يمنع مانع عقلي ولا مانع هنا من إرادة

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٧- ٢٤٨٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: (٢٠٩٣).

(٢) محاسن التأويل(٥/ ٥١١).

الحقيقة، وعليه فيجب حمل لفظ السائحون على معناه الظاهر الحقيقي، وهو السائرون الذاهبون في الديار؛ لأجل الوقوف على الآثار، تواصلاً للعظة بها والاعتبار، ولغير ذلك من الفوائد التي عرفها التاريخ.

وكذلك عهدنا بالمعنى المجازي أنه لا تجوز إرادته إلا عند قيام القرينة على منع المعنى الحقيقي في حال أن الأمر هنا بالعكس؛ لكثرة القرائن التي تطالب بإرادة المعنى الحقيقي دون المجازي؛ وذلك مثل آية: ﴿قُلْ سِيرُواْ﴾[١١ سورة الأنعام] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾[٩ سورة الروم] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾[٤٦ سورة الحج] ﴿فَسِيرُواْ﴾[١٣٧ سورة آل عمران] ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[٢٠ سورة المزمل] ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[١٠٠ سورة النساء].

فهذه الآيات هي قرائن نيرة تؤذن بأن السيح معناه اليسير، فإنها وإن تكن من مادة أخرى إلا أن معناها يلاقي معنى السيح، على أننا لا نعدم قرينة على ذلك من نفس المادة، وذلك كآية: ﴿فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[٢ سورة التوبة] فكلمة سيحوا هنا تفسر ﴿السَّائِحُونَ﴾في الآية هذه، وهم يقولون: خير ما فسرته بالوارد.

وبالجملة فصرف هذا اللفظ عن ظاهره تكسيل للأمة، وتدبير على فتور همتها، وضعف نشاطها، وحيلولة بينها وبين سعادة الإحاطة بآثار الأمم البائدة، ورؤية عِمْرَان المسكونة، الأمر الذي هو الآن الضالة المنشودة عند الغربيين، وفيه ستر لنور الكتاب الذي هو أول مرشد للعالم ألا يألوا جهداً في السير والسياحة، وأن ينقب في البلاد أيَّ تنقيب، وسيأتي تتمة لهذا في تفسير آية: ﴿سَائِحَاتٍ﴾في سورة التحريم -إن شاء

الله تعالى-[١] انتهى.

وذكر الرازي فوائد السياحة حيث قال: «للسياحة أثر عظيم في تكميل النفس؛ لأنه يلقاه أنواع من الضر والبؤس، فلا بد له من الصبر عليها، وقد يلقى أفاضل مختلفين، فيستفيد من كلٍّ ما ليس عند الآخر، وقد يلقى الأكابر من الناس، فيحقر نفسه في مقابلتهم، وقد يصل إلى المرادات الكثيرة فينتفع بها، وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف من الأحوال الخاصة بهم، فتقوى معرفته، وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية في الدين، انتهى[٢].

وقوله: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ﴾[١١٢ سورة التوبة] يعني: في الصلاة، والمعنى: الذين يقيمون الصلاة، ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم؛ وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم.

وخص هذين الوصفين لإقامة الصلاة مع أن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود وقراءة ودعاء؛ لأنهما الوصفان اللذان يتجلى فيهما معنى الصلاة؛ لأن إقامة الصلاة بإحسان الخضوع والخشوع لله، وإخلاص القلب بخشوعه الكامل، وتفويضه التام هو إقامة الصلاة، وكنى به عن معنى الإقامة، فيكون من المناسب أن يعبر بركني الركوع والسجود عن الصلاة، وبهما يتحقق ما اختصت به الصلاة من أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويتحقق فيها ذكر الله تعالى.

وقيل: اختصا بالذكر؛ لأن سائر أشكال المصلِّي من قيامه وقعوده

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) (٥/ ٥١١).
(٢) تفسير الرازي (ج٨/ ص١٥٩).

موافق للعادة، والذي يخرج عن العادة في ذلك هو الركوع والسجود، وبه يتبين الفضل بين المصلي وغيره.

ويمكن أن يقال: القيام أول مراتب التواضع لله تعالى، والركوع وسطها، والسجود غايتها، فخص الركوع والسجود بالذكر لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية، وتنبيهاً على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم، ذكره الرازي[1].

وقوله: ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[١١٢ سورة التوبة] بعد أن بيّن سبحانه الأوصاف التي تربى نفوسهم قلبياً واجتماعياً ذكر صفتين تطهر مجتمعهم، وتجعل الفضيلة دائماً هي السائدة، وهاتان الصفتان هما: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر؛ ولذا قال تعالى: ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ}.

فان قيل: ما وجه دخول الواو في قوله: ﴿والناهون}؟

قيل: فيه جوابان:

أحدهما: أن الواو إنما دخلت ها هنا لأنها الصفة الثامنة، والعرب تعطف بالواو على السبعة؛ كقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[٢٢ سورة الكهف] وقوله في صفة الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[٧٣ سورة الزمر] ذكره جماعة من المفسرين.

والثاني: أن الواو إنما دخلت على الناهين؛ لأن الآمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر في حال أمره، فكان دخول الواو دلالة على أن الأمر بالمعروف لا ينفرد دون النهي عن المنكر، كما ينفرد الحامدون بالحمد دون السائحين،

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) (٥ / ٥١٣).

والسائحون بالسياحة دون الحامدين في بعض الأحوال والأوقات[١].

وقيل: إن الصفات الأولى صفات محمودة للشخص في نفسه، وهذه له باعتبار غيره؛ فلذا تغير تعبير الصنفين، فترك العاطف في القسم الأول، وعطف في الثاني؛ ولما كان لا بد من اجتماع الأول في شيء واحد، ترك فيها العطف لشدة الاتصال بخلاف هذه، فإنه يجوز اختلاف فاعلها ومن تعلقت به، وهذا هو الداعي لإعراب (التائبون) مبتدأ موصوفاً بما بعده، والآمرون خبره.

فكأنه قيل: الكاملون في أنفسهم، المكملون لغيرهم، وقدم الأول لأن المكمل لا يكون مكملاً حتى يكون كاملاً في نفسه، وبهذا اتسق النظم أحسن نسق من غير تكلف، والله أعلم بمراده.

وقيل: حكمة ذكرها في هذه الصفة دون ما قبلها من الصفات ما بين الأمر والنهي من التضاد، فجيء بالواو رابطة بينهما لتباينهما وتنافيهما، وقال بعضهم: هي زائدة، وليس بشيء.

وقال ابن القيم: «... حَسُنَ العطف ليبين أن كل وصف منهما قائم على حِدَته مطلوب بتعيينه لا يُكتفى فيه بحصول الوصف الآخر، بل لا بد أن يظهر أمره بالمعروف بصريحه، ونهيه عن المنكر بصريحه»[٢].

ومن كلام ابن القيم يتبين أن الواو ليست واو الثمانية؛ فعلة دخولها أن كلاً من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر قائم بذاته، فلا يكفي

(١) زاد المسير (٣ / ٥٠٦).

(٢) بدائع الفوائد (ج٣-ص٩١٨-٩١٩) (ط-١٤٢٥هـ) تحقيق علي العمران، إشراف الشيخ: بكر بن عبد الله أبو زيد.

واحد منهما عن الآخر فورودها لنكتة معنوية مرادة بعينها، لا لخصيصة من خصائص لغة العرب كما ذهب إليه الحريري.

وقوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِّ﴾[١١٢سورة التوبة] أي: القائمون على حدود الله لتنفيذها في النفس وفي الناس، فالحد ما يحده الشارع فاصلاً بين الحلال والحرام، ومعنى حفظه حمايته وصونه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِّ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٢٢٩ سورة البقرة].

ويطلق الحد في عرف الفقهاء على كل عقوبة ذكرها الله تعالى للجرائم التي تعد اعتداء على حق الله تعالى، أو كما يعبر في لغة العصر بحق المجتمع، فالحدود عقوبات على الرذائل، وحماية للفضائل، وتدخل الحدود بهذا المعنى الفقهي الخاص في ضمن حدود الله التي تفرق بين الحلال والحرام، وحفظها صونها ومراعاتها، وألا يعتدى عليها.

و(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ﴾لبيان أن هذا نوع مغاير لما سبقه، وقيل: سر العطف فيه الإيذان بأن التعداد قد تم بالسبع، من حيث أن السبعة هو العدد التام، والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه؛ ولذلك تسمى واو الثمانية.

وذهب المحققون إلى أن الواو في ذلك إما عاطفة، وإما واو الحال ولم يثبتوا واو الثمانية، وأنكر الفارسي واو الثمانية، لما ذكرها ابن خالويه في باب المناظرة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[٢٢ سورة الكهف] فقيل: هي واو العطف، أي: يقولون: سبعة ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾فهما جملتان، وقال

الزمخشري: هي الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الجملة الواقعة حالاً عن المعرفة، قال: وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهي التي آذنت بأن الذين قالوا: سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم، وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظن كغيرهم، وهو معترض من جهة أن دخول الواو على الصفة لم يقل به أحد من النحويين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَبْكَارًا﴾[٥ سورة التحريم] فليس من هذا الباب؛ لأن الواو فيه عاطفة، ولابد من ذكرها؛ لأنها بين وصفين لا يجتمعان في محل واحد.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١١٢ سورة التوبة] ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾بياناً لعاقبة الإيمان، وهى نيل الخير والاطمئنان في الدنيا، والجنات في الآخرة، ورضوان من الله أكبر؛ ولذا قال تعالى: ﴿وبشر المؤمنين﴾أي: بشرهم بحسن الجزاء، والله سبحانه وتعالى عنده حسن المآب.

ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به للتعظيم، أو للعلم به؛ لقوله في آية الأحزاب: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[٤٧ سورة الأحزاب].

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

ذكر الله تعالى في هذه الآية أوصافاً ثمانية للمؤمنين، ويا لها من صفات عظيمة وشريفة! لا يتصف بها إلا الكُمل من الرجال، ومنها: أنهم آمرون بالمعروف، ناهون عن المنكر، أي: داعون الخلق إلى الحق، ودافعون لهم عما سواه، فإن المعروف على الإطلاق هو الحق سبحانه.

ويكون فيها ترغيب في الجهاد؛ لأن رأس المعروف الإيمان بالله، ورأس المنكر الكفر به، والجهاد يوجب حصول الإيمان، وإزالة الكفر، والنهي عن المنكر أصعب أقسام التكاليف لإفضائه في الأغلب إلى الخصومة، وثوران الغضب.

والمتأمل في هذه الصفات يجدها متكاملة، فبعد أن بين سبحانه الأوصاف التي تربى نفوسهم قلبياً واجتماعياً ذكر صفتين تطهر مجتمعهم، وتجعل الفضيلة دائماً هي السائدة، وهاتان الصفتان هما: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

❁ الآية الرابعة عشر:
هذه الشعيرة مما أوصى بها لقمان ابنه

قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[١٧ سورة لقمان].

هذه الآية فيها وصية لقمان لابنه، وصلاح الأبناء والبنات يتوقف على أمرهم بالأخلاق الفاضلة، والآداب الكريمة، وقد جاءت بعد عدة وصايا، فبعد أن أوصاه بالتوحيد، وعدم الشرك، وأسس العقيدة السليمة، والعبادة القويمة، أوصاه هنا بأربع وصايا، فيها حب الخير للناس كما يحبه لنفسه، والمسلم مجاهد في سبيل ربه، فدعا ابنه ليكون مؤمناً، ذا إيمان يتحرك في سبيل نشر المعروف، ومطاردة المنكر، وحمل أمانة هذا الدين إلى الآخرين، وإلى الجهاد والصبر على تحمل تبعات الدعوة إلى الله.

وهذه الوصية كلها باقة من العقائد الجليلة، والأخلاق الكريمة، وقد ذكرها القرآن الكريم لننتفع بما فيها من حكمة، إذ الحكمة ضالة المؤمن.

وهذه الدعائم الأربع لنجاح الداعية هي: إقامة الصلاة، بكل ما تتطلبه من مقتضيات في بناء شخصية الداعية، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بكل ما يتطلبانه من زاد وفير؛ لتكوين شخصيته، وتحقيق القيام بتلك الفريضة البالغة الأثر في تحقيق قيام الأمة المسلمة الرائدة القائدة، المخرجة الناس من جور السلاطين إلى عدل الإسلام، ثم الصبر على ما

يلقاه الداعية من أهل الباطل من كل صنوف وفنون الافتتان والابتلاء.

وفي قصِ القرآن موعظة (لقمان) ابنه إيذان بالغ بالأمر الإيجابي بما تضمنته من هذه الدعائم الأربع، فإن أهل العلم ليذهبون إلى أن سنة البيان القرآني في الأمر بالفعل: الإخبار عنه، أو عن صاحبه في سياق المدح، أو الرضا عنه، أو عن صاحبه، وذلك ما هو الجلي في القصص القرآني، وما يحكيه من أخبار السابقين.

فالمسلم القوي الإيمان جدير بأن يصبر على الفتنة والابتلاء، وجدير به قبل التصدي للدعوة إلى الله تعالى، وإلى تغيير المنكر بيده أو لسانه، أن يدرب نفسه وأهله على الصبر على الابتلاء، وعلى الصمود أمام المحن[1].

وقبل أن نتكلم عن هذه الوصايا الأربع نذكر لمحة مختصرة عن لقمان الحكيم:

اتفقوا على أَنه اسم أَعجمي، ممنوع من الصرف، قيل: عبراني، وقيل: سرياني، وكان له من الحِكَمِ والتجارب ما لم يكن لأَحد، قال وهبُ بن منبه: خُيِّر لقمانُ بين الحِكمة والنبوة، فاختار الحِكمة على النبوة، كأَنه استعظم احتمال أَعباء النبوة، وقيل: لم يكن هذا لقمان عاد، بل كان عبداً أَسْوَدَ أَطاع الله تعالى، وأَطاع مالِكَه، فارتضاه الله تعالى، ورَزقه الحِكمة.

ومن الدليل على علو قدره ورفعة شأنه أَن الله تعالى ذكر مواعِظه في أَشرف الكتب السماوية الذي هو القرآن، ونقلها على لسان أَشرف الرسل إلى أَشرف الأمم، وذكر اسمه في موضعين من التنزيل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[١٢ سورة لقمان] الثاني: عند ذكر مَواعِظه:

(١) انظر: فقه تغيير المنكر(١/ ١٥٢) بتصرف.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ﴾[١٣ سورة لقمان]

قال بعضهم:

لقمان أُلْقِمَ حِكمةً مَحْكِيَّةً عَنْـهُ إلى يوم القيامة في الأُمَمْ

اللهُ في القرآن عَظَّمَ شَأْنَه ويَقُول: قد آتَيْتُ لُقْمانَ الحِكَمْ[١].

و(الحكمة) التي أوتيها لقمان هي: العقل والعلم والإصابة في القول والعمل، والجمهور على أن لقمان ليس بنبي.

وفي قوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾[١٧ سورة لقمان] هذه مقدمة أبوية لطيفة (يا بني) بياء المتكلم التي تتضمن معنى التلطف والقرب، ونصيحة الابن يكسب الولد شعوراً بأنه شيء كبير -وهو كذلك- وإنه يحمل أمانة لا بد أن يتحرك لها، تعجز عن حملها الجبال الراسيات، وهذا لا شك يجعله يتطلع دائماً إلى تحصيل الهمم العالية، وعدم الالتفات إلى الترهات، وإلى صغائر الأمور، كما يجعل حياته مصبوغة بالجد بعيداً عن الهزل والترف.

وقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾[١٧ سورة لقمان] أي: حافظ على الصلاة في أوقاتها، وبخشوعها وآدابها، وخصها بالذكر لأنها أكبر العبادات البدنية.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[١٧ سورة لقمان] أي: وأمر الناس بكل خير وفضيلة، وانههم عن كل شر ورذيلة.

وذكر المعروف فيما أوجب الله تعالى من الوصية لا ينفي وجوبها، بل هو يؤكد وجوبها؛ إذ كان جميع أوامر الله معروفاً غير منكر، ومعلوم أيضاً أن ضد المعروف هو المنكر، وأن ما ليس بمعروف هو منكر، والمنكر

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ١٧٨٦).

مذموم مزجور عنه، فإذاً المعروف واجب[١].

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾[١٧ سورة لقمان] فيه إشارة إلى الإذاية، وأنه سيؤذى إذا قام بالأمر والنهى، أي: اصبر على المحن والبلايا؛ لأن الداعي إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه، قال أبو حيان: لما نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى، وباهر قدرته، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة، ثم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك[٢].

فإن لم يصبر على ما يلقاه من أذى رجع من أول الطريق، وتنازل عن دعوته، ولو سلم أحد من الأذى لسلم منه الأنبياء والرسل.

وليعلم المسلم أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وراءه التعب والعناء والنصب فقد يكون التعب نفسياً؛ لأنك تتحمل هم الدعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فمثلاً: لو كان في نطاق حيك أو مسئوليتك منكر فإنك ستحمل همين:

أولاً: جمع النصوص والأدلة التي اعتنت بمعالجة هذا المنكر فتتأملها وتنظرها، وتبحث فيها، فهذا همٌ يحتاج إلى صبر على العلم والبصيرة التي تأمر بها وتنهى.

ثانياً: تحمل هم المواجهة: كيف تواجه؟ كيف تتكلم؟ كيف تقف في وجه الإنسان؟ ولذلك سأل موسى -عليه السلام- ربه أن يثبت قلبه

(١) جامع لطائف التفسير(٣/ ٣٤٠).
(٢) صفوة التفاسير - للصابوني (٣/ ١٩).

لهمّ المواجهة؛ ولذلك قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[طه:٢٥-٢٨] فلا نستطيع أن نفعل شيئاً إلا بالله -جل جلاله-، فإذاً لا بد للإنسان أن يتحمل هذا الهم.

بعد ذلك تأتي النتائج والآثار للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيأتيك السفيه بسفهه، والإنسان الغوي بغيه وفجوره، ويأتيك الناس على اختلاف طبقاتهم، وعلى اختلاف منازلهم في مجابهة الخير وكراهيته، والتنفير منه، وسوء الظن بأهله، وهذا يحتاج إلى صبر، ونفس قوية، وشكيمة وعزيمة[١].

«وهذا يستلزم -أيضاً- العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه، والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾[١٧ سورة لقمان] ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا تكميل نفسه بفعل الخير، وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه؛ ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[١٧ سورة لقمان]»[٢].

وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بعض الضوابط والآداب في كلمة جامعة له عما يحتاجه الآمر والناهي، قال فيها: «ينبغي لمن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر أن يكون فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما

(١) دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٤٤/ ٤) بترقيم الشاملة آلياً.
(٢) فيض الرحمن تفسير جواهر القرآن (٢/ ٣٤٠).

ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه، فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف، وينكر المنكر، والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود، والحلم بعد الأمر ليصبر على أذى المأمور المنهي؛ فإنه كثيراً ما يحصل له الأذى بذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾[١٧ سورة لقمان][(١)].

ويقول الشيخ سفر الحوالي: «إن التعقيب بالصبر بعد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فيه إشارة إلى أن الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر هو أحوج من غيره إلى الصبر؛ وأن كل من دعا إلى الله، وآمن بالله لابد أن يبتلى، وأن يمتحن، ولا بد أن يعادى، كما قال سبحانه: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢] أي: لا يمكن ذلك، ويقول الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[الفرقان: ٣١].

فكل نبي، وكل صاحب دعوة له أعداء من المجرمين، وكل آمر بالمعروف، وناهٍ عن المنكر له أعداء من المجرمين، فالآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر يُصادم الناس في رغباتهم، وفي شهواتهم، وفي مطامعهم، وفي مآربهم وملذاتهم؛ والناس يتهافتون عليها كما مثَّل النبي ﷺ ذلك بأنهم يتهافتون في النار، كما يتهافت الفراش والذباب، ولكنه ﷺ قال: (فأنا آخذ بحجزكم عن النار)[(٢)] وهذا العمل لا يقوم به من بعده

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦٧).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٥/ ٢٣٧٩- ٦١١٨) ومسلم في الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته(٧/ ٦٣- ٦٠٩٧).

ﷺ إلا العلماء والدعاة، والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر؛ لأن الناس يتهافتون على ما يضرهم[١].

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾[١٧ سورة لقمان] ظاهره يقتضي وجوب الصبر، وإن خاف على النفس إلا أن الله تعالى قد أباح إعطاء التقية في حال الخوف في آي غيرها قد بيناها، وقد اقتضت الآية وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر أيضاً.

وقد قال ابن القيم -رحمه الله- مبيناً أهمية الصبر: «إنه تعالى جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم، وهي الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٧)]. وقال بعض السلف وقد عُزِّي على مصيبة نالته: ما لي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال، كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها»[٢].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾عَزْم مصدرٌ، يجوز أَن يكون بمعنى مفعول، أي: من معزوماتِ الأمورِ، أو بمعنى عازِم، كقولِه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾[٢١ سورة محمد] وهو مجازٌ بليغٌ، وزعم المبرد أن العينَ تُبْدَلُ حاءً، فقال: حَزْمٌ وعَزْمٌ، والصحيحُ أنهما مادتان مختلفتان اتَّفَقتا في المعنى.

فيكون المعنى: إن ذلك المذكور مما عزمه الله، وأمر به، وحث عليه.

قال الرازي: معناه إن ذلك من الأمور الواجبة المعزومة، أي:

(١) الحوالي- الصبر على الابتلاء (١/ ٤).
(٢) عدة الصابرين (١/ ٥٨).

المقطوعة، فالمصدر بمعنى المفعول[١]. أي: أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى فيهما من الأمور الواجبة التي أمر الله بها، أو من الأمور التي يعزم عليها لوجوبها.

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١. هذه الآية فيها وصية لقمان لابنه، بوصايا جليلة منها: نشر المعروف، ومطاردة المنكر، وحمل أمانة هذا الدين إلى الآخرين، والجهاد والصبر على تحمل تبعات الدعوة إلى الله.

٢. وفي الآية دلالة على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كانا واجبين في الأمم المتقدمة، كما مر معنا، يقول ابن تيمية -رحمه الله-: «الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله من الدين»[٢].

ويقول الرازي: «الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والإيمان بالله إن هذه الصفات الثلاث كانت حاصلة في سائر الأمم»[٣].

٣. وفيها دليل أن الآمر والناهي مبتلى بأذى الناس؛ ولهذا عقب بالقول ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾[١٧ سورة لقمان].

٤. وفيها أهمية هذه الشعيرة؛ لأن لقمان ما أوصى ابنه إلا بوصايا جامعة، ومنها: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٤٥٣).

(٢) ابن تيمية الحسبة في الإسلام (ضمن مجموعة الرسائل) القاهرة، المطبعة الحسينية (١٣٢٣ هـ، ص ٣٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٣: ٢٧).

❁ الآية الخامسة عشر:

من التناجي المحمود الأمر بالمعروف

قال تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٤].

دلت هذه الآية الكريمة على أنه لا خير في كثير مما يتناجى به الناس، ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه، كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه، ثم استثنى الله تعالى ثلاثة أمور، فقال: ﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء: ١١٤].

فدلت الآية على أن غالب مجالس الناس في غير ما ينفع إلا من أَمر بصدقة، أو معروف، أَو إصلاح بين الناس، ومفهوم الآية أن هذه الأمور خير لنفعها المتعدي.

وفي قوله: ﴿لا خَيْرَ﴾[النساء: ١١٤] (لا) نافية للجنس، واسمها مبني على الفتح، والجار متعلق بالخبر، والجار والمجرور (من نجواهم) متعلقان بنعت لـ(كثير).

قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾[النساء: ١١٤] أي: ما يتحدث به الناس فيما بينهم، والمراد: لا خير فيما يتناجى فيه الناس، ويخوضون فيه من الحديث، ثم استثنى النجوى في أعمال الخير.

التناجي هو الحديث في السر، وأغلب ما يتناجى به الناس فيه إثم

وعدوان، والآية تدل على أن كلام الإنسان عليه لا له؛ إلا ما كان في هذا ونحوه.

يقول الأصفهاني في مفرداته في بيان النجوى: إن أصل هذه المادة الانفصال عن الشيء، والنجوة والنجاة المكان المرتفع، والنجوى عنده اسم مصدر للمناجاة، وهي المسارة، وهي عنده أن تخلو بإنسان وتخاطبه كأنك تسر إليه شيئاً، ولا خير في كثير من هذه المناجاة إلا أن تكون أمراً بصدقة، أو معروف، أو إصلاح بين الناس.

فالأمر الأول من التناجي المحمود هو الأمر بالصدقة، والصدقة: هي التبرع والتطوع بفعل الخير، من إنفاق مال، أو مساعدة ضعيف، أو إنظار مدين معسر، أو ترك الدين والعفو عنه، يقول تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٢٨٠ سورة البقرة][(١)].

ويقول سيد قطب -رحمه الله- في النجوى: "لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى؛ وهي أن تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة، وعن القيادة المسلمة لتبيت أمراً، وكان اتجاه التربية الإسلامية، واتجاه التنظيم الإسلامي كذلك أن يأتي كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه، فيعرضه على النبي ﷺ مسارة إن كان أمراً شخصياً لا يريد أن يشيع عنه شيء في الناس، أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة التي ليست من خصوصيات هذا الشخص، والحكمة في هذه الخطة هو ألا تتكون جيوب في الجماعة المسلمة؛ وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها، أو بأفكارها واتجاهاتها، وألا تبيت مجموعة

(١) زهرة التفاسير (١/ ١٨٥٤).

من الجماعة المسلمة أمراً بليل، وتواجه به الجماعة أمراً مقرراً من قبل؛ أو تخفيه عن الجماعة، وتستخفي به عن أعينها، وإن كانت لا تختفي به عن الله، وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول، وهذا الموضع أحد المواضع التي ورد فيها هذا النهي عن التناجي، والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها(١).

ومن مضار النجوى أن أهل الإيمان إذا رأى بعضهم اثنين يتناجيان دخل في قلبه شيء، ودخل له الشيطان من هذا المدخل، وقال: بم يتناجيان؟ لعلهما يتناجان في أمر يخصك ويريدان كتمان هذا الأمر عليك، لعلهما، لعلهما! فالمسلمون كذلك مع الرسول -عليه الصلاة والسلام- إذ كثرة إطالة المناجاة قد تحمل البعض على أن يفكر: هل هناك عدو يريد أن يداهم بلاد المسلمين؟ هل أصيب الرسول ﷺ بشيء؟ هل آل بيت الرسول ﷺ أصابهم شيء؟ هل نزل شيء جديد من كتاب الله؟ ما الذي حدث؟ فكانت تسبب أيضاً مشاكل ووساوس في صدور البعض، وخاصة صدور من قلّ علمهم بالله، وقلّ علمهم برسول الله ﷺ، فيشق الأمر على المسلمين، فنظمت الأمور بصدقة تقدم بين يدي المناجاة على النحو الذي سمعتموه(٢).

وقوله: ﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾[١١٤ سورة النساء] أمرٌ بالصدقة سواء كانت واجبة أو مستحبة؛ فالأمر بالصدقة مأمور به شرعًا في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

(١) في ظلال القرآن(٢/ ٢٣٨).
(٢) انظر: سلسلة التفسير لمصطفى العدوي (٢/ ٥٦)، بتصرف.

وذكر بعض العلماء أن الصدقة هنا تشمل جميع أعمال الخير من التسبيح والتحميد... إلخ.

وقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾[النساء: ١١٤] وهذا هو الأمر الثاني من التناجي المحمود، وهو الأمر بالمعروف، وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله -عز و جل-، وكل ما ندب الشرع إليه، وما يقره العقل، ولا يستنكره، ويقوي الروابط الاجتماعية، ويقيمها على دعائم من الفضيلة، ورعاية الحقوق والواجبات، فالمعروف لفظ يعم كل أعمال البر، وخصوصاً الاجتماعية منها: وهذا المعروف مقابل المنكر، من حيث معناه، ومن حيث حكمه، فالمنكر هو كل ما يضر الإنسان والمجتمع، وهو منهي عنه، والمعروف كل ما يصلح الإنسان والمجتمع، وهو مأمور به مطلوب، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضاً لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر، وأما عند الاقتران، فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي.

فغاير بين المعروف وبين الصدقة والإصلاح بين الناس مع أن الصدقة من المعروف من باب عطف الخاص على العام.

فالتناجي لتدبير خطة إصلاحية، ومبادئ اجتماعية، وقيام بحق الله تعالى في إقامة مجتمع فاضل، هو من أفضل الفضائل.

وقوله: ﴿أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء: ١١٤] هذا هو الأمر الثالث الذي يصح التناجي فيه، وهو أمر الإصلاح بين الناس، سواء كانوا جماعات وأمماً، أم كانوا أحاداً وأفراداً، والإصلاح بين الناس فريضة اجتماعية تجب على أولى العزم من الرجال، وهى ضريبة ذي الجاه والمنزلة،

فإذا كان بين اثنين خصام وأزاله، فقد قرب بفضل الله بين قلبين، وإن القضاء والفصل في الخصومات يورث في القلوب إحناً، بينما الصلح بينهم يبقي المودة، ولقد قال في ذلك عمر -رضي الله عنه- في كتابه إلى أبي موسى الأشعري: «رد الخصوم حتى يصطلحوا، فإن القضاء يورث بينهم الضغائن»[١] وقال -عليه الصلاة والسلام- لأبي أيوب الأنصاري: (ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين أناس إذا تفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا)[٢].

والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة، ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾[١٠٣ سورة آل عمران]... والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله، كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٨١ سورة يونس]

فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء، ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٤].

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٣٨٤).

(٢) المعجم الكبير(ج٤/ ص١٣٨- ٣٩٢٢) وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج٣/ ص ٤٦- ٢٨٢٠).

فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير؛ ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين؛ وليتم له الأجر سواء تم مقصوده أم لا؛ لأن النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل[١].

والإصلاح بين الجماعات المتناحرة أوفر خيراً من إصلاح الآحاد، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٩-١٠ سورة الحجرات] فكرر سبحانه الأمر بالإصلاح قبل القتال وبعده وفي أثنائه، وإن الذي أذهب النخوة من المسلمين قتال كبرائهم، وعدم وجود من يصلح ذات البين بينهم، حتى ترامى بعضهم في أحضان أعدائه وأعداء الله، وإثم ذلك على من لم يسع بالصلح، ورأب الكلم.

ومن أجل هذا كان من يفعل الخير بالتناجي والتعاون على إصلاح الجماعة بإفشاء البر والإصلاح بين الناس، وإقامة المعروف، وإبعاد المنكر من يفعل ذلك طالباً مرضاة الله تعالى، ولا يبغى سواه، فإن الله تعالى سيؤتيه جزاء عظيماً بالغاً أقصى درجات العظمة.

وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ﴾[النساء: ١١٤] قيدٌ لذلك العمل بطلب ثواب الله، أما إذا فعله مرائياً فلا شيء له، فإن ذهب شخص يصلح ليقول عنه الناس إنه رجل مصلح حلّال للمشاكل

(١) فيض الرحمن تفسير جواهر القرآن (٢/ ١١٠).

والعقد، وكانت هذه نيته فلا ثواب له، فأفعال البر التي يثاب عليها الشخص قيَّد فعلها بابتغاء مرضاة الله.

وقيل: جعل الله -سبحانه وتعالى- الخيرية بهذه الثلاثة مطلقاً، ولو لم ينو الإنسان التقرب إلى الله، وأن الأجر العظيم لمن يتقرب بالفعل إلى الله[1].

وقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٤] أي: فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً هو الجنة، والتعبير بـ(سوف) إشارة إلى أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة لا في الدنيا؛ لأنها ليست دار جزاء.

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١. بين الله في هذه الآية أن من التناجي المحمود الأمر بالمعروف، وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله -عز و جل-، وكل ما ندب الشرع إليه، وما يقره العقل ولا يستنكره، ويقوي الروابط الاجتماعية، ويقيمها على دعائم من الفضيلة، ورعاية الحقوق والواجبات، فالمعروف لفظ يعم كل أعمال البر.

٢. وفي هذه الآية بيان المنزلة العظيمة للإصلاح بين الناس، فدلت هذه الآية الكريمة على مشروعية الصلح، وعلى أنه مندوب إليه، وأنه ينبغي للمسلم أن يحرص على إصلاح ذات البين بين المسلمين؛ فلهذه المنزلة العظيمة ترك النبي ﷺ المدينة ومسجده وذهب لبني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، وتأخر النبي ﷺ عن صلاة العصر؛ حتى أقام بلال -رضي الله عنه-، وأم المسلمين أبو بكر، فدخل النبي ﷺ وأبو بكر يصلي فنبه الناس

(١) الشرح الممتع (٦/ ١٧٣).

أبا بكر لهذا، فتأخر أبو بكر، وتقدم النبي ﷺ، فدل ذلك على عظيم منزلة الإصلاح بين الناس، إذ تولاها النبي ﷺ بنفسه، ولم ينتدب لها أحداً.

وعلى العكس من ذلك فإن الإفساد بين الناس من أسوأ الأعمال، وأبغضها إلى الله -عز وجل-.

٣. وفي الآية دلالة على فضل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأنه تعالى وعد أن من يفعل ذلك فإنه سيؤتيه جزاء عظيماً، بالغاً أقصى درجات العظمة، ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١١٤ سورة النساء] وسوف هنا لتأكيد الوقوع في المستقبل.

فعلى الناس أن يطلبوا مرضاة الله بقوة إيمان في كل ما يتجهون إليه من إصلاح شئون الجماعة، فلا بركة في عمل مهما يكن صالحاً في ذاته إلا إذا طلب به إرضاء الله... فعلينا أن نتجه إلى الله في كل ما نعمل؛ وذلك أن يجتمع الرجل الخيرِّ بالرجل الخير، فيقول له: هلم نتصدق على فلان، فقد علمت حاجته في خفية عن الأعين، أو هلم إلى معروف معين نفعله أو نحض عليه، أو هلم نصلح بين فلان وفلان فقد علمت أن بينهما نزاعاً، وقد تتكون العصبة من الخَيِّرين لأداء أمر من هذه الأمور، وتتفق فيما بينها سراً على النهوض بهذا الأمر، فهذا ليس نجوى ولا تآمراً، ومن ثم سماه (أمراً) وإن كان له شكل النجوى في مسارة الرجل الخير للخيرين أمثاله بأمر في معروف يعلمه، أو خطر له على شرط أن يكون الباعث هو ابتغاء مرضاة الله[١].

(١) انظر: زهرة التفاسير (١/ ١٨٥٦) بتصرف.

❁ الآية السادسة عشر:
الأمر بالمعروف من المأمور به

وقال تعالى:﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

هذه الآية الكريمة مع قلة ألفاظها واختصارها إلا أنها مما كثرت معانيه، وقل لفظه على أتم بلاغة، وأحسن فصاحة، فقد جمعت مكارم الأخلاق كلها؛ لأن في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وفي (الأمر بالمعروف) تقوى الله، وصلة الأرحام، وصرف اللسان عن الكذب، وفي (الإعراض عن الجاهلين) الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مماراة السفيه، وغير ذلك من المعاني.

ولهذا قال بعض العلماء: إن هذه الآية قد تضمنت قواعد الشريعة، فلم يبق فيها حسنة إلا وعتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، فقد أمر الله فيها نبيه بثلاثة أشياء، هي أسس عامة للشريعة في الآداب النفسية، والأحكام العملية.

قال الألوسي: «وقد ذكر غير واحد أنه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، وزبدتها كما قالوا تحري حسن المعاشرة مع الناس، وتوخي بذل المجهود في الإحسان إليهم، والمداراة منهم، والإغضاء عن مساويهم، وجعلوا نحو ذلك زبدة الخبر إلا أن القرآن مادته عامة ومادته خاصة، وقد علم كل أناس مشربهم، ولا يخفى حسن موقع هذا الأمر بعد ما عد من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق حمله»[1].

(١) تفسير الألوسي (روح المعاني) (٥/ ١٣٧).

وقال الشيخ السعدي: «هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورهم»(١).

وفي قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾[الأعراف: ١٩٩] العفو: هو السهل الذي لا كلفة فيه: أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم، وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى ينفروا، وهذا كما جاء في الحديث: (يسروا ولا تعسروا)(٢) وكما قال الشاعر:

خذي العفو منى تستديمي مودتي

ولا تنطقي في سورتي حين أغضب(٣) (٤).

واختلف المفسرون في معنى العفو في هذه الآية على أربعة أقوال:

الأول: أنه الفضل من أموال الناس، نسخته الزكاة؛ قال ذلك ابن

(١) تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن) (ص: ٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، (ج١/ ص ٣٨- ٦٩) ومسلم في الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير رقم (١٧٣٤).

(٣) البيت منسوب في (الموشى) لأسماء بن خارجة الفَزاري (١/ ٥٢).

(٤) تفسير المراغي (٩/ ١٤٧).

عباس، وكان في الابتداء يجب التصدق بما فضل من الحاجات، ثم صار منسوخاً بآية الزكاة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[٢١٩ سورة البقرة].

الثاني: أنه الزكاة؛ قال مجاهد، وسماها عفواً؛ لأنه فضل المال، وجزء يسير منه.

الثالث: أنه أمر بالاحتمال وترك الغلظة، ثم نسخ ذلك بآية القتال.

الرابع: خذ العفو من أخلاق الناس؛ قاله ابنا الزبير معاً، وروي ذلك في الصحيح عنهما[(١)].

والخلاصة: إن من آداب الدين وقواعده اليسر، وتجنب الحرج، وما يشق على الناس، وقد صح أن النبي ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما[(٢)].

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾[الأعراف: ١٩٩] أي: المعروف، والجميل من الأفعال، أو هو كل خصلة يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع، فالمعروف هو ما يعرفه الشرع، وتعرفه النفس من الخير، وتأنس به، وتطمئن إليه، ولا شك أن هذا مبني على اعتبار عادات الأمة الحسنة، وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة في مصالحها.

وإجمال القول فيه- أنه اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس.

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله (٦/ ٢٤٩١- ٦٤٠٤) ومسلم في الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته (٧/ ٨٠- ٦١٩٣).

وقد ذكر المعروف في السور المدينة في الأحكام الشرعية العملية، كوصف الأمة الإسلامية وحكومتها كقوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[٤١ سورة الحج] وقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٠٤ سورة آل عمران].

وعند ذكر الحقوق الزوجية كقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[٢٢٨ سورة البقرة] وفى أحكام الطلاق كقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[٢٢٩ سورة البقرة] وقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[٢٣١ سورة البقرة].

ومن ذلك ترى أن هذا اللفظ (المعروف) لم يذكر إلا في الأحكام الهامة، وأن المراد به ما هو معهود بين الناس في المعاملات والعادات والأخلاق، ومن ثم قال بعض الأئمة: المعروف ما يستحسن في العقل فعله، ولا تنكره العقول الصحيحة، ويكفى المسلمين المحافظة على النصوص الثابتة؛ إذ لا يمكن المؤمن أن يستنكر ما جاء عن الله ورسوله[١].

وفي معنى العرف أربعة أقوال:

الأول: العرف: المعروف؛ قاله عروة.

الثاني: قول: لا إله إلا الله (وهو تخصيص من غير داع).

الثالث: ما يعرف أنه من الدين.

الرابع: ما لا ينكره الناس من المحاسن التي اتفقت عليها الشرائع[٢].

(١) تفسير المراغي (٩/ ١٤٧).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٣٥٩).

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩] يعني: المشركين.

وقيل: هم السفهاء عموماً، والإعراض عنهم بترك معاشرتهم، وعدم مماراتهم، ولا علاج للوقاية من أذاهم إلا الإعراض عنهم.

وفيها: الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة.

وقوله: ﴿أعرض﴾منسوخ، نسخه القتال، فما دام أنهم جاهلون فأعرض عنهم حتى يتبين لهم الحق، ويتبين لهم أنهم على غير الحق، فإذا علمتموهم بعد ذلك فألزموهم.

قال القرطبي: وهذا وإن كان خطاباً لنبيه -عليه الصلاة والسلام- فهو تأديب لجميع خلقه[١].

ويروى: أن رجلاً دخل على عمر، وقال: هيه يا ابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين؛ إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين، فو الله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله»[٢].

وأخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

---

(١) تفسير القرطبي (ج٧/ ص٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣٠٤ - ٣٠٥) في كتاب التفسير، باب سورة الأعراف﴿خذ العفو وأمر بالعرف}.

خذ العفــو وأمر بعرف كـما أمـرت وأعرض عن الجــاهلين
ولـن في الكــلام لكل الأنام فمستحـسن من ذوى الجـاه لين

قال العلماء: وهذه الآية من عجيب القرآن، أولها وآخرها منسوخ، ووسطها محكم، فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾[الأعراف: ١٩٩] أي: الفضل من أموالهم منسوخ بآية الزكاة، ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾[الأعراف: ١٩٩] أي: المعروف، محكم، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩] منسوخ بآية السيف[١].

قال ابن العربي: كل ما في القرآن من الصفح عن الكفار، والتولي والإعراض، والكف عنهم فهو منسوخ بآية السيف وهي: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥ سورة التوبة] الآية نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية، ثم نسخ آخرها أولها[٢] انتهى.

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

هذه الآية جامعة لحسن الخُـلقِ مع الناس، وقد بينت أنه ينبغي في معاملتهم مراعاة ما يلي:

أ- أخذ العفو، وهو ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق.

ب- الأمر بالمعروف، أي بكل قول حسن، وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم، أو حث على خير، أو صلة رحم، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى

(١) قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (ص:١١٠).
(٢) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٧٨).

تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية.

ج- الإعراض عن الجاهل وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله فلا تؤذه، ومن حرمك فلا تحرمه، ومن قطعك فصِلْه، ومن ظلمك فاعدل فيه.

قال ابن العربي: أما العفو فإنه عام في متناولاته، ويصح أن يراد به خذ ما خف وسهل مما تعطى، فقد كان رسول الله ﷺ يقبل من الصدقة التمرة والقبضة والحبة والدرهم والسمل، ولا يلمز شيئاً من ذلك ولا يعيبه، ولقد كان يسقط من الحقوق ما يقبل الإسقاط حتى قالت عائشة في الصحيح: «ما انتقم رسول الله لنفسه قط».

وأما الاحتمال: فقد كان يصبر على الأذى، ويحتمل الجفاء، حتى قال ﷺ: (رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[1].

وأما مخالفة الناس: فهو كان أقدر الخلق عليها وأولاهم بها، فإنه كان يلقى كل أحد بما يليق به من شيخ وعجوز، وصغير وكبير، وبدوي وحضري، وعالم وجاهل، ولقد كانت المرأة توقفه في السكة من سكك المدينة، ولقد كان يقول لأخ لأنس صغير: (يا أبا عمير ما فعل النغير؟)[2] [3].

---

(١) أخرجه البخاري في باب من أخبر صاحبه بما يقال فيه (١٥/ ٢٦٧- ٦٠٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في باب الانبساط إلى الناس(١٥/ ٣٦١- ٦١٢٩) ومسلم في كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه (٦/ ١٧٦- ٥٧٤٧).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ٣٦١).

❁ الآية السابعة عشر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب النجاة من الهلاك

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [١١٧ سورة هود].

في الآية بيان فضيلة هذه الشعيرة (الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر) وأنها سبب النجاة من الهلاك؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[١١٧ سورة هود] أي: صالحون في أنفسهم، مصلحون لغيرهم، ولاحظ أنه لم يقل: وأهلها صالحون؛ لأن مجرد الصلاح ليس كفيلاً بالنجاة من العقوبة الإلهية الرادعة، ومجرد الصلاح لا يرفع العذاب، وفي الحديث: «أنهلك وفينا الصالحون؟» قال: (نعم، إذا كثر الخبث)[1] فدل على أن كثرة الخبث، واستفحال الفساد يكون بتخلف صفة الإصلاح التي هي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن الصلاح في النفس وحده دون ممارسة الإصلاح على الوجه السابق لا يمنع انتشار الخبث الذي يكون سبباً للهلاك والعذاب، والله يقول: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[٢٥ سورة الأنفال].

فمن عوامل الحفظ للإنسان، والحفظ للأمم والشعوب وحمايتها من الهلاك القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا فيه دلالة على أن الصلاح والإصلاح في أي مدينة أو قرية أو فئة من الناس

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج (٦/ ٢٦٠٩- ٦٧١٦) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٨/ ١٦٥- ٧٤١٦).

يكون سبب خير على البشرية جمعاء، بل وعلى الطير في الهواء والهوام والحيوانات، وجميع الدواب التي تدب على وجه الأرض، وصلاح الأمة لا بد أن يكون شاملاً: في عقيدتها، وفي وعيها، وفي فهمها، وفي قلوبها، وفي سلوكها.

«والذين يتوجَّهون شطرَ الإصلاح المعتَبر، ويحملون لواءَه لهم رجالٌ بَرزَةٌ بالأمة، يُسلِمونها إلى ساحاتِ الخير والقوة، ولا يقودُ هذه الركابَ إلا كبيرُ الهمة، مَضّاء العزيمة، وسيكون الإصلاحُ مربحًا ومغنمًا إذا انطلقنا فيه من إصلاحِ الذات، والنظر في عيوبها وتهذيبها، وأطرِها على سُنَن الهُدى، وأتبعنا ذلك بإصلاحِ الأسرةِ ولبناتها؛ لأنها نواة المجتمع، وسيكون الإصلاحُ للعَلياء مرقاةً إذا بسطنا ظلالَه على المجتمَع والأمة بما تقتضيه الحكمة والمصلحةُ من التدرج والرفق والأناة، ومراعاة فقه المهمات والأولويات.

ولما كانت الأهواءُ تجمح، والمدارِك تختلِف وتتفاوَت كان لِزامًا اعتبارُ صلاح المصلِح، وصفاءِ منهجه، واستقامة آرائه؛ إذ لا يشفَع في هذه الأمانة سلامةُ النية وحب الخير -على أنهما محمدتان- مع ضحالةِ العلم، وقصورِ النظر، وضَعف الترجيح بين المفاسد والمصالح، والخلطِ بين الثوابت والمتغيرات، وبهذا تتفتّق أكمامُ الإصلاح على قول الحق سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[١١٧ سورة هود]»[(١)].

(١) موسوعة خطب المنبر (١/ ٣١٢٢) بتصرف.

وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾[١١٧ سورة هود] (ما) هنا نافية، والمعنى: ما صح ولا استقام.

وإضافة اسم الرب -عز جل- إلى ضمير نبينا ﷺ المخاطب بهذه الآية ملاطفة لهذا النبي ﷺ، وتأنيساً له ولأمته، وإشعاراً بعظيم حظوته ومنزلته لديه سبحانه.

وفي قوله: ﴿لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾[١١٧ سورة هود] (اللام) في (لِيُهْلِكَ) لتأكيد النفي؛ ولذا تسمى عند البصريين لام الجحود، وينتصب الفعل بعدها بإضمار (إن) وهي متعلقة بخبر (كان) المحذوف، أي: مريداً لإهلاك أهل القرى، وقال الكوفيون: يهلك خبر (كان) زيدت اللام دلالة على التأكيد[(١)].

وجيء بالفعل في قوله: (ليهلك) إشارة إلى التكرر بحسب ما يكون منهم، فلو كان في كل أمة وقرن بعد قرن من ينهي عن الفساد والظلم لما أخذ بذوي الظلم منهم، ولكان تعالى يدفع بعضهم عن بعض، ولكن تكرر الفساد، وعم كل قرن فتكرر عليهم الجزاء والأخذ، فأشار الفعل إلى التكرر، ولم يكن الاسم ليعطي ذلك.

وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾[١١٧ سورة هود] تنكير (ظلم) قيل: للتفخيم والإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم، والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك على أبلغ وجه، وإلا فلا ظلم منه تعالى فيما يفعله بعباده كائناً ما كان، والباء قيل: للسببية، أو للملابسة.

---

(١) انظر: الدر المنثور (٦/ ٦٩٣) وروح المعاني (٢٢/ ١٢٩) وتفسير القرطبي (١٤/ ٢٨٩) وتفسير الماوردي (٣/ ٣).

ويقتضي حمل (الظلم) هنا على ما هو أعم من الشرك، وأصناف المعاصي، وحمل الإصلاح على إصلاحه، والإقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه، وبعضهم متجهين إلى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك ونحوه، كذا أشار له أبو السعود[١].

فيكون (بظلم) فيه قولان:

أحدهما: بغير جرم، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: بشرك، ذكره ابن جرير، وأبو سليمان[٢].

قوله: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[١١٧ سورة هود] أي: متعاونون في الإصلاح، وفاضلهم ينصح أرذلهم، والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر قائمون بواجبهم، قد ابتغوا الغاية السامية، وهي نشر الفضيلة، ومحاربة الرذيلة، قائمون بالقسط، شهداء الله.

وقد يحق على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها الهلاك الذي قد ينزل بهم؛ لأن الظالم يظلم ويجد الكثرة الكاثرة تؤيده، وتنصره على المظلومين، وتصفه بالحكمة والعدل والعبقرية، حتى اختلطت على الناس الألفاظ والحقائق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وفي قوله: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[١١٧ سورة هود] ثلاثة أقوال:

أحدها: ينتصف بعضهم من بعض، رواه قيس بن أبي حازم عن جرير، قال أبو جعفر الطبري: فيكون المعنى: لا يهلكهم إذا تناصفوا، وإن كانوا مشركين، وإنما يهلكهم إذا تظالموا.

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) (٦/ ١٤٠).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٧١).

والثاني: مصلحون لأعمالهم، متمسكون بالطاعة، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: مؤمنون، قاله مقاتل[١].

ولعل المعنى القريب: يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؛ لأن هذا هو معنى الإصلاح.

ولنتدبر قوله: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ولم يقل: وأهلها صالحون؛ لأن الصلاح الشخصي المنزوي بعيداً، لا يأسى لضعف الإيمان، ولا يبالى بهزيمة الخير، صلاح لا قيمة له، ولا خير فيه! فليكن المسلم صالحاً مصلحاً، وراشداً مرشداً... أما أن يجلس بعيداً ينتظر النتائج، ويستسلم للواقع فلا!

فالهلاك قد يقع مع الصلاح؛ للحديث: «أنهلك وفينا الصالحون؟» قال: (نعم، إذا كثر الخبث)[٢].

ومما يؤخذ من الآية من الفوائد والأحكام:

١. أوضح الله تعالى في هذه الآية قانونه العام، وسنته في البشرية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[١١٧ سورة هود] تنزيهاً لله تعالى عن الظلم، وإعلاماً بأن إهلاك المصلحين من الظلم.

والمراد أن الله تعالى لا ينزل عذاب الاستئصال على مجرد كون القوم

(١) زاد المسير (٤/ ١٧١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج (٦/ ٢٦٠٩- ٦٧١٦) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٨/ ١٦٥- ٧٤١٦).

مشركين أو كافرين، بل إنما ينزل العذاب إذا أساؤوا في المعاملات، وسعوا في الإيذاء والظلم، كما فعل قوم شعيب في مدين، وقوم هود في الأحقاف شمال حضرموت، وقوم فرعون في مصر، وقوم لوط في ديار سدوم في الأردن، وقوم صالح في الحجر بين الحجاز والشام، ويؤيد ذلك أن الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم.

٢. وفيها تأكيد على الدعوة إلى الله، وبذل الجهد في أن يصلح الإنسان نفسه، ويصلح بيته، وأهله وعشيرته، وبذل الجهد في إصلاح ما استطاع من أحوال الناس؛ لأن كل ذلك من أعظم أسباب الثبات على الاستقامة، وليكن هو أول الناجين من الهلاك الدنيوي؛ وبهذا يتبين أن أي قرية تتصف بصفات الكافرين معرضة للإهلاك والتدمير من قبل رب العالمين، أو للعذاب والانتقام على أيدي المؤمنين، مهما كانت قوتها.

٣. وفيها بيان أن الله خلق الكون، وجعل له سنناً تحكم نظامه، وهذه السنن تتصف بخصائص تجعلها ثابتة لا تتغير مهما تغير البشر، ومنها: سنة الإصلاح، فلا يهلك الله البلد إذا كان فيها مصلحون، ومن هنا ينبغي الاهتمام بميادين الإصلاح الحقيقية لكي ننجو من العذاب الجزئي أو الكلي.

والله -عز وجل- قد بعث رسله بهذا الإصلاح، قال شعيب لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهّ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٨٨ سورة هود] وكل الأنبياء بدؤوا بالمنكر الأكبر وهو الشرك، ولكن ينبغي أن يمتد الإنكار والإصلاح إلى ما عليه القوم من

الانحرافات، فقد تكون انحرافات اجتماعية كما وجد في قوم لوط من إتيان الذكران من العالمين، وقد تكون انحرافات اقتصادية، مثل ما كان في قوم شعيب، وهم يطففون المكيال والميزان، ويغشون في البيع والشراء، وهكذا إصلاح المنكرات الأخرى في حياة الناس على اختلاف كل قوم، والانحراف الذي كان متفشياً فيهم.

وقد مدح النبي ﷺ أهل الإصلاح، بقوله: (إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين)[1] فعندما يكون هناك في البلد مصلحون يأمرون بالخير، وينهون عن الشر، وينبهون الناس إلى السنة، ويحاربون البدعة، ويقيمون التوحيد، وينبذون الشرك، وينشرون العلم، ويحاربون الجهل، عندما يكون هناك في البلد من يعلم الناس الخير، ويدلهم عليه، ويحذرهم من الشر، ويعظ صاحب الشر، وينكر على صاحب المنكر، ويصلح الخطأ الموجود، ولا يسكت عن الباطل، ينجون من العذاب.

والمصلح هو: الصالح في نفسه المصلح لغيره، وهؤلاء ينجيهم الله سبحانه وتعالى، ولما كان الإصلاح شيئاً جميلاً، ومحبوباً، وكلمة جذابة، حاول المنافقون أن يتدثروا بهذا الشعار، وأن يدعوا أنهم يحملون لواء الإصلاح، وفي الحقيقة أنهم مفسدون؛ ولذلك قال الله -عز وجل عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[١١ سورة البقرة] وكثير من الناس اليوم يزعمون حمل لواء الراية الإصلاحية،

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (ج٣/ ص١٣٢٨-٣٤٣٠) وفي غيره من الأبواب.

وأنهم أهل الإصلاح، وأنهم يدعون إلى الإصلاح، وأنهم إصلاحيون، وفي الحقيقة أنهم مخالفون للكتاب والسنة، مخالفون لأوامر الله -عز وجل-، كمن يدعو إلى اختلاط المرأة، وكشفها، وتبرجها، ودخولها في كل الميادين باسم الإصلاح، ويسمي ذلك إصلاحاً للمرأة، وتحريراً، وفي الحقيقة أنه إذلال للمرأة، وإهانة، ودفع لها إلى شيء لم يخلقها الله من أجله، وهكذا يحدث الفساد، وتتخلى عن واجبها الأصلي.

فينبغي العمل على الإصلاح الحقيقي المبني على الأدلة الشرعية حتى ينجينا الله تعالى من عذابه، ولقد وعد الله سبحانه المصلحين، وأهل الصلاح بالأجر والثواب العظيم، وبينه في آيات كثيرة، وهذا الثواب والوعد من الله هو لتعزيز سلوك الإنسان من أجل أن يستمر في صلاحه وإصلاحه، وتجنب أن يكون من المفسدين، أو ينحرف في الإفساد، فيخرج عن الطريق السوي والسليم الذي يصلح للحياة، فنلاحظ أن الجزاء للمصلحين وأهل الصلاح الصادقين مع ربهم سيكون واقعاً عليهم في الدنيا بحياة طيبة، وخير كثير، وزيادة في الهدى والإيمان، ومعرفة الحق، والاستدلال عليه؛ ولعله يكون من الفائزين المفلحين الذين وعدهم الله في الآخرة بالثواب والأجر العظيم من الجنات والنعيم المقيم.

أما حال المفسدين يوم القيامة فقد وصفته بعض آيات القرآن بمواقف مخيفة ومرعبة لن ينفعهم ندمهم ولا حسرتهم عندها، ولا طلب الأمنيات بالعودة لتحسين الأمور والحال.

٤. من معاني هذه الآية أنها حثت على أن تكون الحياة الإنسانية قائمة على الصلاح والإصلاح، والإتيان بكل ما هو لصالح

البشرية واستوائها، ولا يكون ذلك إلا بالاستمداد مما شرعه الله، وتوافق مع إرادته، وأمره واجتناب نهيه، فالصلاح يبدأ من وحدة الذات مع نفسها وتنظيمها واتزانها بين مشاعرها وعقلانيتها، وعدم الانسحاب وراء شهوات الجسد والهوى، فيخرج الفرد الصالح ليكون مصلحاً لما حوله، فيبدأ بأسرته وأهله لينتقل للمحيط الأكبر ليصلح ويساهم في إصلاح مجتمعه، فإن صلح الأفراد جميعاً، وتوجه فكرهم نحو ذلك المنهج، والبعد عن العصبيات والأفكار التي تؤدي للتشقق والتفرقة عندها سيصلح جميع المجتمع ومؤسساته، ويسير نحو التحضر والتقدم، والإنسان يحتاج للسعي للإصلاح ليصلح كل ما حوله من بيئته لتعتدل حياته، وتستوي سلوكياته، ولا يأتي بما هو شاذ ومنحرف، وبما يدمر وجود الإنسان ومحيطه، من خلال صناعة الحروب، وبسط الظلم والفساد والقتل.

وهذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[هود:١١٧] وغيرها تبين أن الإصلاح لا يكون إلا تحسيناً لوضع فاسد، وتغييراً إلى الحسن دائماً، وبهذا يبدو أنه لا مانع من استعمال مصطلح التغيير، ويكون السياق موضحاً أن هذا التغيير يقصد به إصلاح الأوضاع الفاسدة في الأمة الإسلامية، والعالم أجمع، لكن استخدام مصطلح الإصلاح أدق، وأكثر دلالة على المراد بلفظه.

وبهذا يمكن أن نحدد الإصلاح اصطلاحاً بأنه كل تغيير إلى الأحسن، سواء كان للفرد، أو الأسرة، أو المجتمع، أو الدولة، أو الأمة.

٥. وفيها: أن الإصلاح فريضة شرعية: لا كما يظن البعض أن إصلاح الأوضاع الفاسدة، أو تحسين الأوضاع القائمة من فضائل الأعمال، يفعله المسلم فيؤجر، ويتركه فلا يؤزر، لكن البحث الدقيق يؤكد أن الإصلاح أمر يدخل في إطار الفرائض الشرعية التي يجب على كل مسلم أو مسلمة القيام به.

❁ الآية الثامنة عشر:

واجب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط بحال

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ١٠٥].

أُستهلت الآية بالنداء الإيماني ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذي من شأنه أن يوقظ المخَاطبين عقلاً وقلباً، لما يحركه من حرارة للإيمان في القلب، ويوجههم إلى امتثال مطلب هذا النداء، فإن كان المطلب أمراً لزم اتباعه، أو نهياً لزم اجتنابه.

والمطلب هنا سيق بأسلوب عجيب، يوحي بأهمية المطلوب من جهة، واهتمام الآمر سبحانه بأوليائه بإرشادهم إلى ما ينفعهم ويصلحهم في الدنيا، ويقودهم إلى الفوز في الآخرة من جهة أخرى، وبين هذين يجد المخَاطب نفسه ملزماً بالاتباع الذي فيه حياته ونجاته.

فقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] عليكم: اسم فعل أمر[1]، وهو عامل النصب في قوله: (أنفسكم)، وهذا أسلوب في العربية يُعرف بأسلوب الإغراء، والمعنى: الزموا أنفسكم، وصونوها عن المعاصي.

وفي هذا الأسلوب يكون مجموع الجار والمجرور (عليكم) قائماً مقام الفعل، عاملاً عمله، متعدياً إلى المفعول، ويسمى حينئذٍ (اسم فعل) ومن

(١) أسماء الأفعال تعمل عمل الفعل الذي قامت مقامه، ونابت عنه، فإن كان متعدياً كان اسم الفعل متعدياً، أو لازماً فلازماً.

صوره التعبير بـ(عليك) و(عندك) و(دونك) و(إليك) أي: أن كل جار ومجرور منها يقوم مقام فعل يعرف معناه من سياقه، ويقال له: (اسم فعل).

وفي الآية حض للمؤمنين على رعاية أنفسهم بالطاعات، ولزوم موارد الهداية، وإذا كان الالتزام بموارد الهداية وأسبابها مطلباً واضح الأهمية، فإن ما أثار إشكالية في الفهم، هو الجملة التالية: ﴿لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] والإشكال الذي نعنيه هو ما يرد على فهمها من أنها توهم الرخصة في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والواقع أنه لا يمكن أن يكون هذا مراداً في الآية؛ لأن القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو من التزامهم الهداية في أنفسهم أيضاً، أي: هي داخلة في هذا الأمر ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

بل إن بعض السلف فسروا الهداية في الآية بأنها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهو أحد رأيين[١] نقلها ابن الجوزي عن بعض السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] قال فيه: «لا يضركم من ضل» بترك الأمر بالمعروف «إذا اهتديتم» أنتم للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قاله حُذيفة بن اليمان، وابن المسيب[٢].

---

(١) ذكر ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير (٢/ ٤٤٣) رأياً آخر نسبه إلى مجاهد، يرى فيه أن الآية ليست واردة في مسألة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأنها واردة في أهل الكتاب، والمعنى كما ذكره: لا يضرُّكم من ضل من أهل الكتاب إذا أدُّوا الجزية، قاله مجاهد، وهو رأي لا تنهض له قوة من آثار، أو سياق.

(٢) تفسير ابن الجوزي (٢/ ٤٤٣).

وهو تفسير يتلاءم ونص الآية، وينحل به الإشكال، وقد أكد عليه ما أخرجه الترمذي بسنده عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) قال الترمذي بعد روايته: هذا حديث حسن صحيح[١].

وقد تواردت الأقوال المأثورة وغيرها على دفع الإشكال، وبيان المعنى الصحيح للآية، ونقل العلماء في هذا الصدد ما اعتبر تفسيراً نبوياً للآية: فقد أخرج الترمذي في سننه عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخُشَني، فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥].

قال: أما والله لقد سألتَ عنها خبيراً، سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: (بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متَّبعاً، ودنياً مؤثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودَعِ العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر، فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً، يعملون مثل عملكم) قال عبد الله بن المبارك: وزادني غيرُ عتبة قيل: يا رسول الله،

(١) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة حديث (٣٠٦٦). وصححه الألباني في صحيح الترمذي (ج٧/ ص٥٧) برقم: (٢٢٥٧).

أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: (لا، بل أجر خمسين رجلاً منكم)[١] قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.

قال ابن عطية في (المحرر الوجيز) مرجحاً كون هذا تفسيراً نبوياً للآية: وهذا التأويل لا نظر لأحد معه؛ لأنه مستوفٍ للصلاح، صادر عن النبي -عليه الصلاة والسلام- [٢].

ويعتبر هذا الحديث المرفوع أصلاً عظيماً في توجيه معنى الآية، وبيان غاية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأنه القبول والانتفاع، وعدم الترفع لداعي الأمر والنهي؛ لأي سبب من الأسباب المذكورة في الحديث، أو التي تقوم مقامها، ويطمئن الحديث الآمرين الناهين بأنه لا ضرر عليهم حال قيامهم بواجبهم إذا لم يستجب لهم المدعوون[٣].

لكن السؤال الآن: هل يدل الحديث على أن هذه المعوقات إذا ما توافرت يسقط حينئذٍ واجب الأمر والنهي؟

قال ابن رجب تعليقاً على هذا الحديث عند ذكره له: أنه «يستدل به

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي(٢/ ٥٢٦- ٤٣٤١) وابن ماجه في كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾(٢/ ١٣٣٠- ٤٠١٤) والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب من سورة المائدة (٥/ ٢٥٧- ٣٠٥٨) وقال الألباني: ضعيف، لكن فقرة: «أيام الصبر ..» ثابتة، المشكاة (٥١٤٤)، الصحيحة (٤٩٤).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٢٤٩).

(٣) انظر: الحسبة في القرآن تفسير قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) موقع الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: بتصرف // :http www.pv.gov.sa /HesbahInQuran /Pages /aya6.aspx

على سقوط الأمر والنهي عند عدم القَبول والانتفاع به»[١]. لكن والحالة هذه يبقى الإنكار حاصلاً في مرتبة القلب، أي أنه لا يسقط بالكلية، وبكل مراتبه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية وقد عرض له أيضاً: هذا يفسره حديث أبي سعيد في مسلم: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[٢] فإذا قوي أهل الفجور حتى لا يبقى لهم إصغاء إلى البر؛ بل يؤذون الناهي لغلبة الشح والهوى والعجب سقط التغيير باللسان في هذه الحال، وبقي بالقلب[٣].

ويستأنس لهذا المعنى بما ورد عن بعض السلف من تفسير للآية التي معنا، فقد أخرج الطبري عن الحسن قال: قال رجل لابن مسعود: ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥]؟ قال: ليس هذا بزمانها، قولوها ما قُبلت منكم، فإذا رُدَّت عليكم فعليكم أنفسكم[٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٦٠٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب النهي عن المنكر من الإيمان حديث: رقم (٩٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٧٩).

(٤) تفسير الطبري (١١/ ١٣٨) وليس المقصود بقول ابن مسعود -رضي الله عنه-: ليس هذا بزمانها أن الصحابة غير مخاطبين بها، بل مراده أن العصاة المجترئين على المنكرات الذين لا يستجيبون لداعي الأمر والنهي لا يوجدون في زمانكم هذا؛ لأن الصحابة -رضي الله عنهم- كانوا أحرص ما يكونون على الطاعة، وأبعد ما يكونون عن المعاصي، أقرب ما يكونون إلى الاستجابة إذا دعوا إلى معروف، أو نهوا عن منكر، وهم لم يكونوا ليؤثروا دنياً ولا هوى على طاعة الله، ولا يعجبون برأيهم إذا خالف أمر الله، ولا غير ذلك مما ذكر في الحديث المرفوع السابق ذكره من علامات هؤلاء الذين لا يتبعون معروفاً، ولا ينهجرون منكراً.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود أنه ذُكر عنده هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] فقال: لم يَجِيء تأويلها بعد، إن القرآن أنزل حين أنزل ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، وكان منه آي وقع تأويلهن على عهد النبي ﷺ، ومنه آي وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آي يقع تأويلهن عند الساعة، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب من الجنة والنار، قال: فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذق بعضكم بأس بعض، فأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، فإذا اختلفت القلوب والأهواء، ولبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، عند ذلك جاء تأويل هذه الآية، قال أبو بكر: يعني عبد الله بقوله: «لم يجئ تأويلها بعد» إن الناس في عصره كانوا ممكنين من تغيير المنكر لصلاح السلطان والعامة، وغلبة الأبرار للفجار، فلم يكن أحد منهم معذوراً في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر باليد واللسان، ثم إذا جاء حال التقية، وترك القبول، وغلبت الفجار سوّغ السكوت في تلك الحال مع الإنكار بالقلب، وقد يسع السكوت أيضاً في الحال التي قد علم فاعل المنكر أنه يفعل محظوراً، ولا يمكن الإنكار باليد، ويغلب في الظن بأنه لا يقبل إذا قتل، فحينئذٍ يسع السكوت»[1].

وأخرج الطبري أيضاً عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر، إذ أتاه رجل جليدٌ في العين، شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نحن ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يألو، وكلهم بغيضٌ

(١) أحكام القرآن للجصاص (٤/ ١٥٧).

إليه أن يأتي دناءةً، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك، فقال رجل من القوم: وأيَّ دناءة تريد أكثرَ من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟!

قال: فقال الرجل: إني لستُ إيّاك أسأل، أنا أسأل الشيخ، فأعاد على عبد الله الحديث، فقال عبد الله بن عمر: لعلك ترى لا أبا لك، آني سآمرك أن تذهب أن تقتلهم؟ عظهم وانههم، فإن عصوك فعليك بنفسك، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ١٠٥](١).

وحاصلُ ما في هذه الآثار أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يسقط بمجرد تحصيل المسلم الهداية في نفسه، غير مبال بما يقع فيه غيره من معاصٍ؛ لأن هذه الهداية لا تتكامل إلا بقيامه بواجب الأمر والنهي، فالمسلم فرد في جماعة، والدين يلزمه الاهتمام بأمر الجماعة، فإذا قام بما عليه من واجب الأمر والنهي، فقد أدى ما عليه، ولو لم يستجب له المدعوون، والضرر حينئذٍ واقع عليهم، لا عليه، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء﴾ [البقرة: ٢٧٢] هذا ما تفيده كل الآثار السابق ذكرها المرفوع منها وغير المرفوع(٢).

ثم ختم الله -عز وجل- الآية بقوله: ﴿إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ١٠٥] قال ابن جرير في تفسيرها:

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٤٠).

(٢) انظر: الحسبة في القرآن تفسير قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) موقع الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: بتصرف // :http www.pv.gov.sa /HesbahInQuran /Pages /aya6.aspx

يقول تعالى ذكره للمؤمنين من عباده: اعملوا أيها المؤمنون بما أمرتكم به، وانتهوا عما نهيتكم عنه، ومروا أهل الزَّيغ والضلال، ومن حاد عن سبيلي بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، فإن قبلوا فلهم ولكم، وإن تمادَوْا في غيهم وضلالهم، فإن إليّ مرجع جميعكم، ومصيركم في الآخرة ومصيرهم، وأنا العالم بما يعمل جميعكم من خير وشر، فأخبر هناك كلَّ فريق منكم بما كان يعمله في الدنيا، ثم أجازيه على عمله الذي قَدِم به عليّ جزاءه حسب استحقاقه، فإنه لا يخفى عليَّ عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى[1].

ومما تدل عليه الآية من الفوائد والأحكام:

١. أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر واجب لا يسقط بحال من الأحوال، وأنه وسيلة من وسائل الاهتداء الذي حضت الآية على تحصيله، وأن عدم القيام به حتى مع صلاح النفس منافٍ للاهتداء.

«ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف غير مهتدٍ أن الله تعالى أقسم أنه في خسر في قوله تعالى: [وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر: ١ - ٣] فالحق وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبعد أداء الواجب لا يضر الآمر ضلال من ضل»[2].

٢. وترشد الآية أيضاً إلى قاعدة مهمة في الأمر والنهي، وهي أنه يشترط في القيام به ألا يؤدي إلى مفسدة أعظم من ذلك المنكر،

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٥٤).
(٢) ينظر أضواء البيان (١/ ٤٦٠).

لإجماع المسلمين على ارتكاب أخف الضررين[١].

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده، وليس عليه هداهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال، وذلك يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة باليد.

فأما القلب فيجب بكل حال، إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: (وذلك أضعف الإيمان)[٢]. يعني: أقل ما يمكن به تغيير المنكر، وكذلك الحديث الآخر عن ابن مسعود -رضي الله عنه- مرفوعاً: (وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)[٣] [٤]. أي: لم يبق بعد هذا من الإنكار ما يدخل في الإيمان حتى يفعله المؤمن، ويثاب عليه، بل الإنكار بالقلب آخر حدود الإيمان.

ولهذا يقول ابن رجب -رحمه الله- «وأما إنكاره بالقلب فلا بد منه،

(١) ينظر أضواء البيان (١/ ٤٦٠).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (ج١/ ص٥٠- ١٨٦).
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (١/ ٥٠- ١٨٨).
(٤) مجموع الفتاوى (ج٢٨/ ص١٢٧).

فما لم ينكر قلب المؤمن دل على ذهاب الإيمان من قلبه»[١].

وقال الشوكاني: «...فإن لم يستطع أنكر بالقلب، وهذا يقدر عليه كل أحد، وهذا أضعف الإيمان كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ»[٢].

وقال ابن النحاس: «وأما الإنكار بالقلب وهو كراهة تلك المعصية وبغضها، فلا يسقط عن مكلف بوجه من الوجوه، إذ لا عذر يمنعه»[٣].

وقال شيخ الإسلام أيضاً: «وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والحسنات والسيئات أو تزاحمت؛ فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي، وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة، ودفع مفسدة فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح، أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته، لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقَلَّ أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام.

وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما؛ بل إما أن يفعلوهما جميعاً؛ أو يتركوهما جميعاً،لم يجز أن يؤمروا بمعروف، ولا أن ينهوا عن منكر، ينظر: فإن كان المعروف

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٢١).
(٢) السيل الجرار (٤/ ٥٨٦).
(٣) انظر: كتابه (تنبيه الغافلين) (ص١٦).

أكثر أمر به؛ وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه؛ بل يكون النهي حينئذٍ من باب الصد عن سبيل الله، والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله، وزوال فعل الحسنات، وإن كان المنكر أغلب نهى عنه ؛ وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر وسعياً في معصية الله ورسوله، وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما، ولم ينه عنهما، فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين، وذلك في الأمور المعينة الواقعة[1].

- وأخذ بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] أنه يشترط في وجوب الأمر والنهي مظنة النفع به، فإن جزم بعدم الفائدة فيه لم يجب عليه، كما يدل له ظاهر قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[الأعلى: ٩] وقوله ﷺ: (بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنياً مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر... للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً، يعملون مثل عملكم)[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي(٢/ ٥٢٦- ٤٣٤١) وابن ماجه في كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ (٢/ ١٣٣٠- ٤٠١٤) والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب من سورة المائدة (٥/ ٢٥٧- ٣٠٥٨) وقال الألباني: ضعيف، لكن فقرة: «أيام الصبر ..» ثابتة، المشكاة (٥١٤٤)، الصحيحة (٤٩٤).

قال الشنقيطي: «وهذه الصفات المذكورة في الحديث من الشح المطاع، والهوى المتبع... الخ، مظنة لعدم نفع الأمر بالمعروف، فدل الحديث على أنه إن عدمت فائدته سقط وجوبه»[(١)].

والمراد سقط وجوب مرتبتي اليد واللسان، أما مرتبة القلب فلا تسقط بحال، وإلا كان ذلك رضاً بالمنكر، وهذا خطر عظيم يخشى معه أن يعم الله الجميع بعقاب من عنده، وهذا ما حذر القرآن الكريم منه في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الأنفال: ٢٥].

- قال القرطبي: قال ابن خويز منداد: تضمنت الآية اشتغال الإنسان بخاصة نفسه، وتركه التعرض لمعائب الناس، والبحث عن أحوالهم، فإنهم لا يسألون عن حاله، فلا يسأل عن حالهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[المدثر: ٣٨] وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[الأنعام: ١٦٤][(٢)].

الآية الكريمة بين النسخ والإحكام:

لم يذكر جمهور المفسرين عن كون الآية منسوخة، إلا ما نسبه ابن الجوزي إلى بعضهم، فقال: وقد ذهب قومٌ من المفسرين إلى أنها منسوخة، ولهم في ناسخها قولان:

أحدهما: أنه آية السيف.

والثاني: أن آخرها نسخ أولها، روي عن أبي عبيد أنه قال: ليس في

(١) أضواء البيان (١/ ٤٦٥).
(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٣٤٤).

القرآن آية جمعت الناسخ والمنسوخ غير هذه، وموضع المنسوخ منها إلى قوله: ﴿لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلّ﴾ والناسخ قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾والهُدى ها هنا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[1].

وقد نقل ابن عطية عن المهدوي ادعاء نسخها وضعفه، وقال: قال المهدوي: وقد قيل: هي منسوخة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، ولا يعلم قائله[2].

والحق مع ابن عطية في ذلك، فإن دعوى النسخ هنا لا محل لها، وإنما لجأ إليها من لجأ لتوهمه التعارض بين قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾وقوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ظناً منه أن الجزء الأول يرشد إلى اهتداء النفس، ولا يُلزِم بحض الآخرين عليها، وأن الجزء الثاني يُلزِم بذلك.

والواقع أنه لا تعارض مطلقاً بين جزأي الآية، لأن الآية من مطلعها تقرر وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتجعله من هداية النفس أيضاً؛ إذ لا اهتداء للنفس بدون الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بما يناسب الحال من مراتب الإنكار، ويراعي قواعده.

وهذا ما قررناه في معنى الآية مستندين إلى الآثار الواردة في ذلك من المرفوع وغيره.

وهذا ما رجحه جمهور المفسرين، حتى قال في ذلك شيخهم الطبري:

---

(١) زاد المسير (٢/ ٤٤٣).
(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٢٤٩).

وأولى هذه الأقوال، وأصحّ التأويلات عندنا بتأويل هذه الآية، ما روي عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- فيها، وهو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] الزموا العملَ بطاعة الله، وبما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم الله عنه ﴿لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] يقول: فإنه لا يضركم ضلال من ضل إذا أنتم لزمتم العمل بطاعة الله، وأدَّيتم فيمن ضل من الناس ما ألزمكم الله به فيه، من فرض الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الذي يركبه أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه، إذا رام ظلماً لمسلم أو معاهد ومنعه منه فأبى النزوع عن ذلك، ولا ضير عليكم في تماديه في غيِّه وضلاله، إذا أنتم اهتديتم وأديتم حق الله تعالى ذكره فيه.

ثم يستطرد ابن جرير قائلاً: وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات في ذلك بالصواب؛ لأن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين أن يقوموا بالقسط، ويتعاونوا على البر والتقوى، ومن القيام بالقسط الأخذ على يد الظالم، ومن التعاون على البر والتقوى الأمر بالمعروف، وهذا مع ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من أمره بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولو كان للناس تركُ ذلك لم يكن للأمر به معنىً، إلا في الحال التي رخَّص فيه رسول الله ﷺ تركَ ذلك، وهي حال العجز عن القيام به بالجوارح الظاهرة، فيكون مرخصاً له تركه، إذا قام حينئذٍ بأداء فرض الله عليه في ذلك بقلبه.

وإذا كان ما وصفنا من التأويل بالآية أولى، فبيِّنٌ أنه قد دخل في معنى قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ما قاله حذيفة وسعيد بن المسيب من أن ذلك: «إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر» ومعنى ما رواه أبو ثعلبة الخشني عن رسول الله ﷺ[1] [2] والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٥٣).

(٢) انظر: الحسبة في القرآن تفسير قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) موقع الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: بتصرف // :http www.pv.gov.sa /HesbahInQuran /Pages /aya6.aspx

الفهرس

المقدمة ٥
الآية الأولى:التحذير من مضارة القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتشبيه حال من يضارهم بحال اليهود ٩
الآية الثانيـــة:أمر الأمة بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان أن الفلاح منوط بهما ٢١
الآية الثالثـــة:خيرية هذه الأمة مرهونة بقيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٧
الآية الرابعة:التلازم بين الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٧١
الآية الخامسة:ذم أحبار بني إسرائيل ورهبانهم لعدم قيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٨٣
الآية السادسة:أخبر القرآن أن من أسباب لعن بني إسرائيل تركهم هذه الفريضة تحذيراً من الاتصاف بصفتهم ٩٣
الآية السابعة:الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة النبيﷺ في الكتب السابقة ١٠٤

الآية الثامنة:القيام بهذه الشعيرة سبب للنجاة من الهلاك ١٢٨
الآية التاسعة:من صفات المنافقين أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ١٤٤
الآية العاشرة:من أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٥١
الآية الحادية عشر:من وظيفة الدولة المسلمة القيام بهذه الشعيرة ١٥٨
الآية الثانية عشر:لا بد أن يكون في كل أمة بقية صالحة مصلحة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ١٦٨
الآية الثالثة عشر:من أوصاف المؤمنين أنهم آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر ١٧٤
الآية الرابعة عشر:هذه الشعيرة مما أوصى بها لقمان ابنه ١٨٦
الآية الخامسة عشر:من التناجي المحمود الأمر بالمعروف ١٩٤
الآية السادسة عشر:الأمر بالمعروف من المأمور به ٢٠٢
الآية السابعة عشر:الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب النجاة من الهلاك ٢٠٩
الآية الثامنة عشر:واجب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط بحال ٢١٩
الفهرس ٢٣٤